المهاجرة

رواية للكاتب ا لأفغاني

نصير أحمد أحمدي

ترجمة

محمد داوود الأفغاني

دار البشير
للثقافة والعلوم

اسم الكتاب: المهاجرة
التأليف: نصير أحمد أحمدي – ترجمة: محمد داوود الأفغاني
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 160
عدد الملازم: 10 ملازم
مقاس الكتاب: 14 x 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2016/25216
الترقيم الدولي: 9 - 588 - 278 - 977 - 978

١٤٣٨هـ
٢٠١٧م

التوزيع والنشر
دار البشير
للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

الفصل الأول

ما إن فتحت جهاز الكمبيوتر، وتصفحت قائمة البريد الوارد، حتى وجدتُ رسالة مجهولة المصدر من بين الرسائل الأخرى الواردة من جهة عملي، فبادرت بقراءة الرسالة المجهولة أولًا فكان فيها:

– سأموت، هل تكتب قصة حياتي؟

نظرت إلى العنوان، فقد كان عبارة عن بعض الحروف المبعثرة، لم أعرها أي اهتمام، وقمت بالرد على الرسائل الواردة من جهة عملي على عجالة، فالنصوص الإذاعية المعدة للنشر والموضوعة على طاولة مكتبي كانت بحاجة إلى الإصلاح.

وفي الساعة العاشرة، تلقيت رسالة أخرى من نفس العنوان:

– هل فكرت؟

كتبت:

– من أنت؟

وبعد مضي دقيقة، جاء الجواب:

– لقد قمت بتنزيل روايتين من رواياتك من الشبكة المعلوماتية، وأرجو منك أن تأتي إلى غرفة الدردشة!

امتثلت للأمر.

كتبت:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام من أنت؟

- أمممممم. ألا يمكننا التواصل دون أن نتعارف؟

- كلا، مستحيل.

- إذاًأنا فتاة في الثانية والعشرين من عمري.

كتبتُ:

- أريد جوابًا شافيًا.

- ههههه.

-لم الضحك؟

ردت:

- هل تكتب قصة حياتي؟

-كلا.

- أبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا.

- تبلغين اثنين وعشرين عامًا أم تبلغ اثنين وعشرين عامًا!؟

- ههههه. هل تشك في مصداقيتي إلى هذه الدرجة؟

- هل ثمة دليل على قولك؟

- لم تجبني.

فكتبتُ:

– في أحد الأيام كنت أدردش مع أحدهم موهمًا إياي أنه بنت، ثم تبين لي لاحقًا أنه أحد أصدقائي، و لازلت موضع السخريه عند الزملاء.

لم تردّ بشيء. كما أني لم أهتم بها كذلك، ونظرت إلى الساعة فكانت العاشرة والنصف صباحًا، فأسرعت إلى صالة الاجتماعات؛ حيث الاجتماع الذي استغرق ساعة ونصف. اتجهت بعدها مباشرة إلى صالة المطعم. وفي حوالي الساعة الواحدة ظهرًا عدت إلى مكتبي ونظرت إلى شاشة الكمبيوتر، و رأيت أنها قد كتبت عدة جمل متواصلة.

– من يكون على حافة الموت لا يمكن أن يكذب على أحد.أرجو أن تكتب قصة حياتي، وبذلك ستضيف رواية جديدة إلى الساحة الأدبية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ستحسن إلى الآخرين، وهل لك أن تزودني برقم جوالك؟

فكتبت:

– هل ما زلت موجودة؟

لم تكن موجودة فبعثت لها رقم هاتفي وخرجت من المكتب.

***

نزلت من السيارة في منطقة (نيازبيك)، وهو حي يقع شرق كابل؛ حيث أسكن فيه، وهي من إحدى العشوائيات الكثيرة وذات الأزقة الضيفة التي توجد في مدينة كابل.

ومن الصعب المرور عبر تلك الأزقة الضيقة وخاصة في الشتاء، إذ أن سكان الحي يرمون الثلوج من أسطح منازلهم على طرفي الزقاق، ومن يملك سيارة مجبرٌ على ترك السيارة في منزله لمدة ثلاثة أشهر .

الكهرباء كانت مقطوعة، وبدأت أسير في ظلام دامس،غير أن بياض الثلج المتساقط من أسطح المنازل كان ينير لي الطريق بحيث أتمكن من وضع القدم في مكان مناسب.

اتجهت إلى المخبز الكائن عند أول الشارع، واشتريت رغيفًا واحدًا، كان كافيًا بالنسبة لي؛ فأولادي كانوا قد ذهبوا إلى الريف لزيارة الأقارب.

ما إن درت نحو باب البيت حتى رنّ هاتفي، أخرجته من جيبي، ونظرت إلى الشاشة فكان رقمًا دوليًّا، قربته إلى أذني وقلت:

- السلام عليكم.

فجاءني الجواب بصوت أنثوي.

- هل صدقت الآن؟

سألت: عفوًا! من أنت؟

سمعت صوت الضحك، ثم السعال، وقالت:

- أنت كثير النسيان، لا أعتقد أنك ستتمكن من كتابة قصة حياتي بشكل صحيح.

ضحكتُ:

- فعلًا أنت فتاة.

ردّت عليّ ضاحكة:

– هل صدقت الآن؟

– لست بحاجة إلى دليل أكبر من هذا!

– أي نعم، انزع الوسواس من قلبك؛ فأنا لا أكذب عليك.

سكتُّ بحثًا عن جملة مناسبة للجواب.

قالت: هناك ضجيج في الهاتف.

– نعم فأنا في طريقي إلى منزلي، واطئًا قدمي على الثلج، لم أرَ مدينة كابل بمثل هذا البياض من قبل.

قالت:حتى هنا لا ينقصنا الثلج.

– أين؟

– في إيطاليا.

وقفت أمام باب المنزل، ممسكًا برغيف الخبز تحت كتفي، أدخلت يدي في جيبي، باحثًا عن المفتاح وسط العملات المعدنية.

نادى عليّ الطرف المقابل:

– هلو، هل تسمع صوتي؟

– نعم.

– إذًا لم سكتَّ؟

أدرت المفتاح في القفل.

قالت: أصُعُبَ عليك فتح الباب؟

تملكني الضحك فقلت:

- أنت ساحرة حقيقية.

- لا، أنا سمعت صوت الباب.

انقطع الهاتف.

دخلت الغرفة، وكانت الكهرباء قد عادت، وبالقرب من المدفأة الكوب المتسخ ودلّة الشاي الباقي من الصباح.

آه! كم أكره غسل الأواني في حياتي.

نظرت إلى الغرفة وكانت نظيفة؛ فلم تكن تحتاج إلى الكنس.

بدأت بتشغيل التلفاز؛ حيث نشرة الأخبار المسائية الساعة السابعة مساء، وكانت تتعلق بالمظاهرات، بسبب ورود الأنباء عن حرق المصاحف في قاعدة باغرام.

وكان المتظاهرون يرددون شعارات ضد كرزاي وأمريكا. وعلى جانبي الطريق عدة سيارات صغيرة تنبعث منها ألسنة اللهب.

تذكرت المدفأة، فأحضرت الحطب. وبعد عشر دقائق غطت الرطوبة زجاج النوافذ.

لم أكن بحاجة إلى طبخ الطعام؛ فقد كانت لدي بعض الصالونة من مساء أمس. قمت بتغيير ملابسي، ثم استلقيت ممدّدًا بجانب المدفأة مستمتعًا بطقطقة الحطب أثناء الاحتراق حيث احمرّ أحد جوانب المدفأة من شدة الحرارة.

رنّ الهاتف ثانية من ذات الرقم قالت:

- سامحني انتهى الرصيد.

فقلت:

- أنا بخيل جدًّا.

ضحكت وقالت:لِمَ؟

لاشيء! لأني لم أعاود الاتصال بك.

اختلط ضحكها بالسعال واستمر في السعال للحظات، ثم عادت للضحك وقالت:

- لا، ليس الأمر كما تظن.

قلت: لا أكذب عليك، بالأمس كنت قد أحضرت نصف كيلو لحم، كفتني للغداء والعشاء.

ازداد ضحكها، و اختلط مع صوتها صوت أنثوي آخر لكنه لم يكن واضحًا.

قلت: من هذه؟

- ممرضة، وتقول لي لا تتحدثي كثيرًا، فِإن حالتك الصحية لاتتحمل مثل هذه الأمور.

سألتها: هل تجيدين اللغة الإيطالية.

- لا لكنها تجيد بعض الإنجليزية.

فقلت: مم تعانين؟

صمتت، وكان صوت سيارة الإسعاف آتيًا، ثم ضحكت فجأة وقالت:

- هل أنت مستعجل؟

- لا لكن الاتصال سيكلفك كثيرًا، محاولًا تغيير الموضوع.

لم أسمع الرد.

قلت:

- هلو.

- أسمع.

لكني شعرت هذه المرة أن صوتها كان مخلوطًا بالبكاء.

ثم ضحكت فجأة وقالت:

- آه! لا تفكر في التكاليف، فعندي عشرة آلاف دولار، لو أصنع منها طائرات ورقية فلن تنتهي خلال شهر.

قلت لها مترددًا:

- لَماذا! أين الأم، الوالد، الأسرة؟

ضحكت، ضحكة ملؤها المرارة والحسرة قائلة:

- قبل أربعة أشهر كنت أملك كل شيء، وأما الآن فلم يتبق منهم أحد.

صمتت إلا أني كنت أسمع بكاءها لفترة طويلة. حتى انقطع الخط.

لم أستطع النوم حتى وقت متأخر من الليل، أحسست بصدق حديثها، وكانت هناك أسئلة كثيرة تتردد في ذهني.

***

وفي الصباح كنت مشوش الذهن، وما إن وصلت إلى مكتبي حتى بادرت إلى فتح الكمبيوتر، لكن البريد كان يحتوي فقط على الرسائل الخاصة بالعمل! وكان عليّ الذهاب إلى الاجتماع في تمام الساعة الثامنة صباحًا.

حضرت الاجتماع وتباحثنا مع الزملاء حول البرامج الإذاعية. إلا إني كنت مشغول البال بحديث الفتاة؛ فقد كانت هناك أسئلة كثيرة تتردد في ذهني أريد معرفة إجابتها منها.

انتهى الاجتماع في الساعة العاشرة عدت بعدها مباشرة إلى مكتبي، فقد كانت هنالك بعض الأوراق بحاجة إلى التصحيح.

آه! الإذاعة مثل الرحى، تعمل أربعًا وعشرين ساعة، وخاصة الإذاعات العالمية فأعمالها تحتاج إلى دقة كبيرة، ولا تقبل فيها أية أخطاء حتى ولو كانت صغيرة. ورغم ذلك فتحت البريد فلم تكن ثمة رسائل، فأخذت الأوراق واستطعت الانتهاء منها خلال ساعتين.

وقبل توجهي إلى صالة الطعام مع الزملاء لتناول الغداء جلست أمام الكمبيوتر وكتبت على عجالة:

ـ أرى أنك غير موجودة! لعلك ندمت؟

تلقيت الجواب في الساعة الثالثة ظهرًا.

ـ اعذرني؛فقد أخذوني لإجراء الفحوصات، لا أمل لي في الحياة. لكنهم لا يتركونني لحالي.

مضى اليوم، وفي المساء انتهيت من قراءة رواية. ولكني كنت مشوشَ الذهن.

ولم أكن أطيق الصبر، بحثت عن رقمها فوجدته، رنّ هاتفها دون أن أتلقى جوابًا.

وبعد فترة ليست بالقصيرة، رنّ الهاتف وقربت الجوال إلى أذني:

ـ هلو.

قالت: سامحني؛ كانت الشرطة عندي.

تحيرت من ذلك؛ فسألتها باستغراب:

– لماذا؟

ـ لا شيء، لقد طرحوا عليّ بعض الأسئلة، صحيح، عندي طلب.

ـ تفضلي.

– انظر..

قاطعت كلامها وقلت:

ـ رأيتك.

ضحكت بشدة:

ـ كيف بدوت لك؟

قلت:

– عيون بها حول، أنف بطول شبر واحد، وفم طويل مثل الضفدع.

ازداد ضحكها، ثم سعلت وقالت:

ـ لا، لست بهذه البشاعة، ففمي صغير، وعيناي كبيرتان، وشعري كثيف أجعد، يتلوى فيه المشط ويمكنك أن تعتبرني سمراء بعض الشيء.

قلت:

ـ نعم. اذكري طلبك؟

ضحكت.

ـ أرجو عدم الاتصال بي ثانية.

ـ لماذا؟

ـ سيكلفك ذلك ماليًّا.

قاطعت كلامها:

ـ أترينني بخيلًا؟

ضحكت وقالت:

ـ أرجوك، لم أقصد هذا. أنت تكتب قصة حياتي؛ لذلك يجب علي أن أتحمل تكلفة الاتصال.

ثم ضحكت وقالت: إذا لم تلبي طلبي هذا فلا توجد قصة إذًا.

قلت:

ـ موافق فأنا أيضًا أبحث عن موضوع.

علا ضحكها وقالت:

- أشكرك.

أخذها السعال واستمرت على هذا الحال مدة فترة طويلة، ثم تنفست نفسًا طويلًا وقالت بصعوبة:

ـ دقيقة.

سمعت صوتًا وفهمت منه أنها وضعت الهاتف على شيء صلب، طاولة أو شيء آخر.

سمعت صوتًا خافتًا،لم أستطع تمييزه؛ إلا أنه كان صوت رجل، وأسمع معه أحيانًا صوت امرأة. وبعد مرور فترة، عاودتني في الحديث قائلة:

- أيوه، ماذا بعد؟

سألت:

- أتشاجرت مع أحد؟

ارتفع صوتها بالضحك:

ـ لا لكنه جعل الممرضة لا تساوي فلسًا.

- لماذا؟

ـ لا شيء. مدير المستشفى كان غاضبًا على الممرضة؛ بسبب سماحها للشرطة للدخول إلى غرفتي.

قلتُ:

- ماذا كانت تريد الشرطة؟

ـ لا شيء، فقد طرحوا عليّ سؤالين أو ثلاثة. لكن كان وجهة نظر الطبيب، أنه لا يحق للشرطة أن تستجوب مثل هذه الحالات الحرجة، ويرى أنه ليس من المستحسن بالنسبة لي كثرة الكلام.

قلت:

ـ حقًّا، أنت لا تتكلمين كثيرًا.

ضحكت مرة أخرى وقالت:

ـ هذا يعني أنني أتكلم كثيرًا؟

ـ لا. فقد تحدثت معي على الهاتف لمدة عشر دقائق.

ازداد ضحكها:

ـ هل تعلم؟ لا يوجد أحد هنا؛ لأبوح له ما في نفسي. فهؤلاء الثكالى لا يتحدثون كثيرًا.

قاطعت كلامها:

ـ الثكالى!؟

ـ نعم، علام؟

ـ هذه اللفظة قروية خالصة.

ضحكت:

ـ نعم؛ فأنا عشت في القرية.

قلت لها:

ـ لكنك تتحدثين اللغة الإنجليزية.

قاطعت كلامي:

ــ لا تحسبني أمّيّة إلى هذه الدرجة؛ فقد درست الآداب.

سألتها:

ـ أين؟

ـ في جامعة كابل.

سكتُّ.

قالت:

ـ انظر!

تدخلت في حديثها.

ـ رأيتكِ.

ضحكَت بشدة.

ـ انظر! أعرف أن لديك أسئلة كثيرة، أستطيع أن ألخص قصتي في نقطتين فقط؛ لكنك لن تستطيع أن تكتب رواية عنهما.

قلتُ:

ـ صحيح يا آنسة.

ـ هل تعتبر كلامي كذبًا؟

ـ لا. لكن هناك مسألة أخرى، هل أظل ممسكًا بالهاتف، أم أكتب قصتكِ؟

ضحكت:

ـ أمم. أيوه صدقت؟

صمتت.

ـ هل تسمعين؟

ضحكت.

ـ دعني للتفكير.

ظلت ساكتة برهة من الوقت، ثم قالت:

ـ ما رأيك بالمحادثة عبر الدردشة؟

ـ لا، لا تجعليني أفقد وظيفتي، ولا أملك خدمة الإنترنت في البيت.

ـ لا بأس، سأفكر في حل، أيوه، كيف الطقس في كابل؟

مددت يدي إلى الزجاج، ومررت كفي عليه، وكانت شرارات الثلج المتطايرة تتجه نحو المصباح الأصفر أعلى باب المنزل.

قلتُ:

ـ تتساقط الثلوج.

لم أسمع الجواب.

***

انشغلت في اليوم التالي؛ حيث أن الإدارة كانت بصدد تعيين موظفين جدد، وتم تكليفي مع أحد الزملاء بمهمة الاختيار، واستمرت المقابلات مع المرشحين حتى المساء. كان عددهم أربعين مرشحًا، قابلناهم واحدًا

واحدًا.نسألهم، وفي الأخير اخترنا منهم عشرة، وكان علينا أن نقيم لهم دورة تدريبية لمدة ثلاثة أيام؛ فالمؤسسة كانت بحاجة إلى أربعة منهم فقط.

مضى اليوم، ولم أجد فرصة لتفقّد البريد الوارد.

أثناء عودتي إلى المنزل كان الشارع مزدحمًا، فوصلت البيت متأخرًا؛ حيث قمت بشراء بيضتين وعدد من الطماطم مع رغيف الخبز. عيوني كانت تدمع من شدة البرد.

لم تكن ثمة كهرباء في البيت عند وصولي إليها، والفتيلة الموضوعة على عبوة الغاز قد سقطت، والذهاب إلى البقالة كان بحاجة إلى قلب الأسد.

شغَّلت المدفأة على الضوء الصادر من الهاتف، وقمت بتغيير ملابسي، ومددت رجلي في الغرفة المظلمة على أمل عودة التيار الكهربائي؛ لكنني تضايقت من الظلام. أحسست بنخوة الرجال، فقمت من مكاني وأدخلت يدي في جيوب معطفي وخرجت.

كانت الرياح الباردة تلسع وجهي، والنجوم تتلألأ في السماء الصافي، وقفت أمام البقالة، وقد أضيئت بشمعة ذات ضوء خفيف وقد تكونت خطوط رقيقة بيضاء على أسفلها.

اشتريت رزمة من الفتايل، وعدت إلى البيت وقمت بإشعال الفتيلة؛ فأنارت الغرفة. كنت أشعر بالجوع، فدخلت المطبخ وقمت بطبخ البيض مع الطماطم؛ لكن مذاقها لم يكن كما ينبغي إذ أن البرد كان قد غير مذاق الطماطم.

تركت غسل الصحن حتى عودة الكهرباء، واستلقيت بجانب المدفأة، كنت متضايقًا. أمسكت الكتاب كان عبارة عن مجرد كلام منثور بعنوان «كن محسنًا ولا تكن مسيئًا».

انبعث من الهاتف ضوء أزرق، كانت عبارة عن رسالة قصيرة، حيث كتب لي أحد الأصدقاء:

ـ لقد استمتعت بحياتك، ههههه.

لكني لم أكن أفهم ما الذي استمتعت به!.

أجبته:

ـ لا، لم أستمتع بشيء، ههههه.

وضعت الهاتف على الأرض إلا أنّ ضوءه الأزرق لم يخفُت، نظرت إليه فإذا بمكالمة لم يرد عليها من طرف الفتاة، أعدت الاتصال بها، لم أتلقَّ الجواب.

وبعد خمس دقائق عادت واتصلت عليّ وقالت سأتصل عليك لاحقًا.

عاد التيار الكهربائي، فشغلت جهاز التلفاز، وكان يعرض على إحدى القنوات فيلمًا أمريكيًّا (رين جاف لارد) فيلمي المحبب. مع أنني سبق أن شاهدته عدة مرات إلا أنه لم يكن مملًّا فقد كنت أستمتع بتصويره الدقيق وخياله العالي. كنت مستغرقًا في مشاهدته، حتى رنّ الهاتف فكان من نفس الرقم.

قالت:

ـ اعذرني؛ فقد كنت ذهبت إلى السجن.

تعجبت!.

ـ ماذا كنت تفعلين هناك!؟

ـ ذهبت لزيارة والدي.

ـ تنفستُ طويلًا.

ـ هل أبوك في السجن؟

ـ نعم؛ فقد تم الحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة.

أجهشت بالبكاء وأضافت قائلة:

ـ هل تعلم؟ كان لا يعرفني!.

صمتت.

سألتها:

ـ لماذا؟

ردت عليّ بصوت حزين:

ـ إذًا متى ستكتب قصتي؟

ـ لا يمكن كتابتها عبر الهاتف.

ـ إذًا تصفح بريدك الإلكتروني غدًا.

سألت:

ـ اسمك؟

ـ مريم.

صمتت برهة، ثم قالت بصوت خافت:

ـ أنا مرهقة، مرهقة جدًّا، أخاف أن لا أتمكن من اكتمال قصتي.

سمعت صوتًا أنثويًّا آخر بجانبها، وكان قريبًا. وأفهمت مريم بالإنجليزية المكسرة أنه حان وقت تناول الدواء.

قالت مريم:

ـ هل تسمع؟

ـ نعم.

ـ هذه ممرضة، تقول لي بأنه حان الوقت لتتناولي دواءك.

ضحكت فجأة، لكن ضحكها كان مملوءًا بالبكاءثم قالت:

ـ هل تعلم؟! هذه صاحبة العيون الزرقاء لا تثق بي، ستظل واقفة على رأسي، حتى الانتهاء من تناول خمسة أقراص مُرّة؛ لكنها لا تُلام على ذلك؛ فقبل أيام وجَدَت الأقراص في سلة المهملات، سأتصل عليك غدًا مساء، لا تنس بريدك الإلكتروني، مساء الخير.

***

الفصل الثاني

في الصباح فتحت جهاز الكمبيوتر بعجالة لكني لم أجد رسالة مريم. وفي الساعة الثامنة بدأت ورشة عمل، وكنا نريد التعرف من خلالها على القدرات الذاتية للأشخاص الذين وقع الاختيار عليهم، فبعضهم كانوا جيدين، يحملون أفكارًا مبدعة.

وقبل عشرة دقائق من انتهاء العمل فحصت البريد الإلكتروني، ورأيت رسالة مريم وكانت عبارة عن: السلام عليكم فقد أرسلت كلامي عبر رسالة صوتية.

نسخت حديثها في فلاش، ونزلت من سيارة نقل الموظفين في منطقة كوته سنجي، وذهبت إلى المطعم وطلبت وجبة كباب لفوها لي في جريدة ورقية، ثم مررت على محل للفواكه واشتريت بعضًا من البرتقال.

وصلت البيت متأخرًا، وكانت الكهرباء موجودة، قمت بإشعال النار في المدفأة أولًا، ثم جلست أمام جهاز الكمبيوتر، وتحققت من مدة الحديث المرسل من مريم فكان حوالي عشر دقائق.

بدأت كلامها بصوت خافت قائلة:

ـ السلام عليكم، أعلم أنك مشغول. ومع ذلك قبلت طلبي. طلب شخص هو أقرب إلى الموت منه للحياة، شكرًا.

لعلك تجد في حديثي كثيرًا من الحشو، فخذ منه فقط ما تراه مفيدًا، فقد كنتَ صادقًا؛ فالقصة طويلة لا يمكن إملاؤها عبر الهاتف.. نعم.

سيكون من المفيد أن أرسل لك حديثي عبر رسالة صوتية، ومع ذلك فقد يكون لديك بعض الأسئلة، وأنا فكرت في هذا الأمر؛ سأقوم بالاتصال بك كل مساء للإجابة على أسئلتك.

أخذها السعال وتنفست نفسًا طويلًا ثم أضافت:

– أستميحك عذرًا فلا أستطيع أن أبوح لك بأسماء عائلتي وقريتي؛ فالرواية سيقرؤها الجميع. فمن الممكن أن يطلع عليها من يعرفنا، فلا أريد أن تعرف شقيقتي بقصة أسرتها؛ فيعيّرونها بها.

آه! ماذا أقول لك، فقد كانت حياتنا مليئة بالفرح والسرور؛ لكن ذهب كل ذلك أدراج الرياح، وكل ذلك بسببي.

صمتت مريم لحظة، ثم أجهشت بالبكاء وبكت بصوت خافت وقالت:

آه! اعذرني؛ فلا أستطيع أن أسيطر على نفسي.

سمعت صوت رجل يقترب، وقال بإنجليزية مكسرة:

ـ كيف الصحة؟

أجابته مريم:

ـ جيدة.

قال الرجل:

ـ هل تعلمين أن البكاء سيضر بصحتك؟

ساد الهدوء. وبعد لحظة سمعت الصوت يبتعد من المكان.

ـ لا يتركوني حتى للبكاء ولا للضحك.

صمتت لحظة، ثم واصلت حديثها:

ـ نعم، المكان عبارة عن مستشفى حكوميٍ صغير، والأطباء الموجودون فيها طيبون، بعضهم يتحدثون قليلا من الإنجليزية، يأخذون بالَهُم مني، يمكن أن يكون ذلك بسبب حالتي التي يُرثى لها. توجد هنا ممرضة مسنة اسمها لوسي.

ـ هل تعلم؟ أحيانًا أقوم بإرجاع الدم ولا تشمئز من ذلك فتبادر إلى تنظيف فمي ونحري.

لوسي من أصول بوسنية، وقد أصيب زوجها في منزله في التسعينيات أثناء الحروب الأهلية، أما هي فالتجأت إلى إيطاليا. تقول بأنها تعمل منذ ثمانية عشر عامًا في هذا المستشفى.

لا أخرج من المستشفى كثيرًا، كما أنهم لا يسمحون لي بالخروج منها، تقول لي لوسي:إن المشي بالنسبة لك مضرّ.اقضي اليوم في هذه الغرفة المغطاة بالسيراميك الأبيض الذي يمكنَ أن ترى وجهك من خلاله، فشمسي هي هذا المصباح الأصفر المتدلي من سقف الغرفة.

نعم أخرج أحيانًا إلى فناء المستشفى لكني لا أطيق ذلك؛ فالسماء ملبدة بالغيوم دائماًفكل شيء فيه بلا روح سوى بعض أشجار الصنوبر المتراصة التي أحس أن بها روحًا.

يوجد في الممر عدد ثلاثة أجهزة كمبيوتر. في السابق كنت أذهب إليها كثيرًا، وأتصفح المواقع الأفغانية؛ لأروّح بها عن نفسي. لكن الآن ضعفت قواي فلا أقدر على الجلوس طويلًا.

أخذها السعال، ثم ضحكت فجأة، وقالت:

آه! اعذرني، لعلي خرجت عن الموضوع.

صمتت لبرهة من الوقت، ثم أضافت:

ـ قبل عدة سنوات ذهبت مع أسرتي إلى القرية، قام والدي باستدعاء البنّائين، وقاموا بصيانة الغرف القديمة على أمل أن نتردد عليها في الأجازات المدرسية.

وفي عصر أحد الأيام ناداني والدي وقال بصوت ملؤه الفرح:

ـ لقد وجدت كنزًا!

ذهبت إليه، وكان يقوم بإزالة التراب عن عتبة أحد الأبواب القديمة.

تبسم والدي.

ـ هل ترين هذا؟

اقتربت منه، فرأيت على أعلى الباب نقشًا محفور فيه:

مريم سنة ١٩٩٠ التاسع والعشرون من شهر مارس.

فهذا كان تاريخ ميلادي.

سكتت مريم وتنفست نفسًا طويلًا ثم قالت بصوت مهموس خافت:

ـ كانت أيامًا جميلة، أضحك، وأذهب مع بنات القرية إلى جدول الماء. لكن أيام الفرح هذه كانت قصيرة؛ فقد تدخل أبناء العمومة ومنعوا والدي من ترميم البيت، قائلين إنه ميراث، وكلنا له الحق فيه.

والدي كان يكره المشاكل؛ فلم يرغب في إثارة المشاكل فانكسر قلبه، وترك صيانة البيت في المنتصف، وعاد إلى المدينة ثانية ومن بعده انقطعنا عن زيارة الريف للأبد.

كنا نسكن في كابل بحي خير خانة، وكنا أسرة صغيرة مكونة من أربعة أفراد: الأم، الوالد، الأخ الصغير وأنا. وأما أختي الكبرى فكانت قد تزوجت في القرية، ولا أريد أن أتحدث عنها كثيرًا فقد استطاعت بذكائها كسب ودّ أهل زوجها.

والدي كان رجلًا مثقفًا، ترى البشاشة على وجهه دائمًا وكنا نناديه (بابا)

سعلت مريم وقالت:

ـ والدي كان في شبابه ضابطًا في الجيش الأفغاني لكنه فضَّل العمل الحر أثناء الحروب الأهلية وأيام حكومة طالبان، فقد كان يقوم باستيراد الطحين من باكستان ويقوم ببيعه في السوق بمدينة كابل، وبسبب تقلب أسعار العملة الباكستانية؛ تعرض للخسارة في الفترة الأخيرة.

ولما جاءت حكومة كرزاي، لم يتقدم لشغل منصب حكومي بل قام بفتح محل صغير لبيع المواد الغذائية في أول الشارع المؤدي إلى بيتنا، ووالدتي كانت أيضًا تعمل كمعلمة في مدرسة خاصة.

كانت حياتنا سعيدة، أمي كانت تصغر والدي بسنوات كثيرة، وكان فارق العمر بينهما خمسة عشر عامًا، أتذكر أنه في يوم من الأيام كنا مدعووين عند أحد أقاربنا صعدت أنا وأمي من الباب الأمامي

للباص فحضر مساعد السائق لأخذ الأجرة قامت أمي بإخراج الأجرة؛ فأخبرها: لقد قبضت الأجرة من والدك.

وهنا استغلت أمي الفرصة، فكان كلما غضب والدي منها ترد عليه مظهرة الجدية في حديثها وتقول له: ما الذي حصل يا أبي؟

فيضحك والدي ويسكت.

أمي كانت جميلة جدًّا، تحلق حول عينيها الكبيرتين الحواجب الطويلة، كلما ضحكت ظهر على خديها الأبيضين خطوط رقيقة فيزيدها جمالًا. نعم! كلنا كنا نشبهها، إلا أن لون البشرة قد ورثناه من والدنا.

سعلت مريم، وصمتت للحظات، ثم سمعت صوتًا فهمت منه أنها شربت الماء، تنفست طويلًا، وقالت بصوت خافت:

ـ كنت سعيدة، لم أكن أعرف الحزن، ضحكي كان أكثر من الكلام؛ لكن كل ذلك استمر معي حتى سن الواحد والعشرين! لقد تبدل كل شيء منذ السنة الماضية، كل شيء.

انتهى كلامها.

كنت أشعر بالجوع، فأغلقت جهاز الكمبيوتر، نهضت من الكرسي وجلست بقرب المدفأة.

الكباب كان لا بأس به إلا أن رغيف الخبز كان ألذ من اللحم؛ حيث ذابت فيه التوابل والفلفل الأسود.

وفي الساعة المتأخرة من الليل وردني الاتصال من مريم وقالت مباشرة:

ـ هل تستحق الكتابة؟

ثم ضحكت فجأة .

– آه، سامحني، السلام عليكم.

رددت عليها التحية.

قالت:

– هل استمعت إلى الحديث؟

ـ نعم.

ـ هل لديك أي استفسار؟

فكرت قليلًا فلم أر أي حاجة للاستفسار.

ـ لا، لكن لدي طلب واحد.

ــ تفضل.

ـ في هذه المرة أرسلي حديثًا مطوّلًا.

ضحكت:

ـ لماذا؟

ـ غدًا يوم الخميس، ويوم الجمعة والسبت أجازة، فلدي مزيد من الوقت للكتابة.

قالت:

ـ أنا موافقة، فأنا مستعجلة أكثر منك.

صمتُّ.

قالت:

ـ نعم صحيح، لقد تردد في ذهني سؤال واحد.

ـ تفضلي.

بيتكم هادئ جدًّا، ولا يوجد بها صوت أطفال.

قلت لها:

ـ ذهبوا إلى غزني.

قالت لي وهي تضحك.

ـ يظهر من صوتك كأن النعاس غلبك، كم الساعة؟

نظرت إلى شاشة الهاتف وقلت:

ـ الحادية عشر.

قالت:

ـ لعلك مرهق، وتريد أن تنام.

فكرت، فلم تكن لدي ثمة أسئلة، فقلت (نعم).

***

الفصل الثالث

خرجت إلى الشارع في الصباح الباكر، في طقس بارد، كنت متضايقًا ولم أكن أعرف السبب.

يبدأ الدوام الرسمي في إدارتنا في الساعة السابعة والنصف صباحًا، وكنت أخرج من البيت في السادسة والنصف، المكتب ليس بعيدًا عن البيت فلو سلكت السيارة الطريق المباشر لوصلنا خلال عشرين دقيقة؛ لكن كان على سيارة المكتب أن تمر على عدة أماكن؛ لأخذ الموظفين الآخرين؛ فلذلك تستغرق رحلة الوصول إلى المكتب ساعة كاملة.

بعد لحظات صعدت السيارة، وقمت بمصافحة الزملاء، ذكرني أحدهم بأن يدك ساخنة، هل تعاني من الحمى؟

أجبته:

ـ لا.

لكن زادت درجة حرارتي بعد ذلك، وبدأت أشعر بصداع في رأسي، والسخونة في جسدي، ولم أكن قادرًا على مواصلة العمل.

بعد الظهر نسخت حديث مريم في جهاز الذاكرة (فلاش) وطرقت باب مكتب رئيسي فسمح لي بالخروج المبكر؛ فتحركت مباشرة نحو البيت.

مضى اليوم، ونمت مبكرًا، حيث لم أكن قادرًا على الجلوس أمام شاشة الكمبيوتر. وفي الصباح كنت قد تعافيت، فقد ذهبت عني الحرارة، وكنت أحس بالراحة.

مسكت الهاتف ورأيت مكالمات لم يرد عليها من قبل مريم لم أكن قد شعرت بها.

فتحت الكمبيوتر في الساعة الثامنة صباحًا، وكانت مريم قد بدأت بسرد قصتها بعد التحية مباشرة.

ـ في السنة الجامعية الثالثة حضر إلى فصلنا شاب، كان لديه عينان كبيرتان سوداوان، طويل القامة ذو ذقن ممتلئ بلحية رقيقة، ويظهر من صفاء بشرته أنه لم يواجه أية مشكلات في حياته.

كان اسمه وحيد، وقد انتقل من جامعة أخرى.

وحيد كان شابًّا هادئًا، لم يكن يتحدث كثيرًا، وكان يجيب على كل سؤال موجّه إليه من قبل زملائه بكلمة (نعم) أو (لا)، إلا أنه كان متفوقًا في دراسته، فكان كلما وقف أمام السبورة أسهب في الموضوع فقد كان ملمًّا بكافة الموضوعات، وحديثه كان شيقًا حتى الأساتذة كانوا ينصتون له.

كان يحضر إلى الجامعة في سيارة فارهة، وينتظره السائق حتى الواحدة والنصف.

مرضت أسبوعًا كاملًا، فلم أستطع الحضور إلى الكلية، وكان قد فاتني تدوين محاضرات بعض المواد الدراسية، طلبت من ثلاثة من زملاء الفصل تزويدي بالمذكرات لكنهم اعتذروا كونهم لم يدونوها بشكل كامل، أخبرتني إحدى زميلاتي بأن أذهب إلى وحيد، ذهبت إليه في الفسحة، وكان يجلس تحت ظل شجرة يقرأ كتابًا اقتربت منه.

قلت:

ـ يا أخي أنا بحاجة إلى مذكرات الأسبوع الماضي.

نظر إلي بتمعن، وعاد إلى قراءة الكتاب.

شعرت بأنه مغرور فهمَمْت بالانصراف لكن حاجتي للمذكرات دفعتني لمواصلة الحديث معه:

ـ يا أخي أعرني إياها وسأعيدها لك في الصباح.

ومن دون أن ينظر لي، مد يده إلى الشنطة وأخرج كراستين، ومد يده ناحيتي ثم قال بصوت خافت:

ـ أترينني سيء الأخلاق إلى هذه الدرجة!.

قلت:

ـ لم أفهم.

يده كانت ممدودةً.

أخذت الكراستين، ودخلت الصف، وبعد لحظات حضر المحاضر، وكان يتحدث عن أحد أغراض الشعر؛ لكن ذهني كان مشتتًا كنت أفكر في كلامي.. هل تفوهت بما يسيء إليه. لم أستطع أن أفهم.

وفي الصباح رأيته تحت نفس الشجرة، ذهبت إليه وسلمته الكراستين:

ـ شكرًا يا أخي.

ضحك، إلا أن ضحكه كان مشوبًا بالاستهزاء وقال:

ـ أنا لدي أربع أخوات.

تملكني الغضب.

ـ بم أناديك إذًا؟.

قال:

ـ هل رأيت مني أي حركة غير مناسبة؟

ـ كلا.

ـ لم الخوف مني إذًا؟.

قاطعت كلامه..

ـ لم أخاف منك؟

تبسم:

– مخاطبتك إياي بالأخ، هي نفسها علامة الخوف وسوء الظن بي.

ثم قام ودخل الصف.

بعد الانتهاء من المحاضرات كنت أسير نحو الباب الرئيسي للجامعة، مرَّ وحيد إلى جانبي ونظر إلي بغضب.

شككت في أعصابه ولم أرَه سويًّا في حركاته، ناديت عليه:

ـ هل أنا مدينة لك بشيء؟

لم يلتفت إليَّ وواصل السير.

وصلت إلى البيت ظهرًا، وكان قد قام أخي الصغير ببعثرة دفاتري. سألته عن السبب، فقال:

– بالأمس قمت بالرسم في إحدى الكراسات لونها أحمر وأنا أبحث عنها الآن.

أحَمَرّ وجهي، فقد قام أخي بالرسم في الدفتر الخاص بـ وحيد.

في اليوم التالي، رأيت وحيد في الحديقة؛ حيث كانت الحصة الأولى خالية، ذهبت إليه فاعتدل في جلسته، ومن دون أن ينظر إلي قال:

– هل جئت للاعتذار؟

حديثه كان صحيحًا إلا أنه تملكتني الغيرة فقلت:

ــ لا.

تبسم وقال:

ـ لا تكذبي، فأنا نظرت إليك ووجهك كان أحمرًا.

لم يكن لدي الجواب.

ـ ابتعدت عنه.

لم أخرج من الصف أثناء الفسحة، فقد فاتني تدوين بعض الدروس.

سمعت صوتًا قريبًا.

– سامحيني كنت أمزح.

نظرت إليه فإذا هو وحيد. أظهرت له بأنني مشغولة. وقف وحيد للحظات ثم خرج.

بعد انتهاء الفسحة دخل مدرس النحو متعكر المزاج، ولم يكن بإمكانه إلقاء المحاضرة، اكتفى بتكرار الدرس الماضي، وقبل أن يخرج من الصف، ترك فوق الطاولة مذكرة، وحث الطلاب على أخذ كل واحد منهم نسخة منها.

وبمجرد خروج المحاضر؛ حدثت فوضى، فكل طالب كان يرغب في أخذ المذكرة معه لتصويرها لنفسه، فتقدم وحيد، واقترح عليهم أن يأخذ النسخة، ويقوم هو بتصويره إلى ثلاثين نسخة، ومن ثم يقوم بتوزيعها على البقية.

اقتنع الجميع بالفكرة، ولم أستطع الحضور في الصباح. وفي اليوم الثاني غاب وحيد فأنا الوحيدة التي لم أستلم نسخة المذكرة وغاب وحيد يومًا آخر.. والمذكرة كانت ضرورية. أخذت رقم وحيد من أحد زملاء الفصل صوته كان خافتًا، وأخبرني بأنه سيحضر إلى الجامعة بعد ساعة، وبالفعل حضر بعد ساعة أثناء الفسحة، وكان يرتدي الزي الأفغاني، رأيت تشققًا في شفته السفلية.

قلت:

ـ هل تعاني من ثمة أمراض؟

ضحك قائلًا:

ـ ليس الأمر مهمًّا.

أخذت منه المذكرة، وتحرك من مكانه دون أي حديث، ظللت أنظر إليه حتى خرج من الباب الرئيسي للجامعة.

كنت مرهقة، كنت ألوم نفسي، ولم أستطع نسيان الشفة المشقوقة لوحيد.

وفي الصباح عندما ذهبت إلى الصف، بحثت عن وحيد فلم أجده إذ أن مقعده كان شاغرًا، لم أعرف لماذا؟ إلا أنه صورة وحيد ظلت مسيطرة على بالي طوال اليوم.

وفي المساء استجمعت كامل قواي وقمت بالاتصال على وحيد، رن هاتفه ولم أتلق أي جواب منه.

وبعد مرور حوالي ربع ساعة عاد واتصل بي، أخبرني بأنه تعافى جيدًا، وأنه سيحضر إلى الجامعة يوم السبت القادم.

سعلت مريم، ثم صمتت لحظة، نظرت إلى شاشة الكمبيوتر بعجالة، ورأيت أن حديثها لم ينته بعد.

ساد الهدوء إلا أنه لم يمر دقيقة حتى سمعت صوت مريم مرة أخرى:

ـ سامحني بطارية المسجل كانت ضعيفة؛ فالجهاز صغير بحجم الكف؛ لكنه يسجل بشكل جيد، وفيه مكان لوضع الفلاش ومن السهل نقل ما يتم التسجيل عليه إلى جهاز الكمبيوتر، حسنًا دعنا نكمل القصة.

صمتت مريم للحظات ثم تنفست الصعداء وأضافت:

الجامعة كانت بعيدة، فقمنا بالاتفاق مع عدة فتيات باستئجار الباص. وكان الباص يأتي إلينا كل صباح في الساعة السابعة والنصف ثم يمر بعدة طالبات أخريات لأخذهن. وكان ينتظرنا عند بوابة الجامعة في

الساعة الثانية عشر والنصف ظهرًا. كانت الفتيات تتحدثن مع بعضهن البعض تضحكن وتتساءلن عن أحوال بعضهن البعض.

كانت الأيام تمضي. وفي أحد الأيام بينما كنا في طريقنا إلى الجامعة ذكرتني إحداهن أن لون بشرتي قد تغير، وأنني أفقد وزني يومًا بعد يوم، انتبهت الفتيات الأخريات إلى كلامها، وأضافت إحداهن بأنك لا تضحكين كما السابق وزادت الأخرى بأنك بدأت لا تتكلمين، وقالت الرابعة بأن هذا من علامات الحب.

لم أكن أعلم بما آل إليه حالي كما لم أكن أعرف عن الحب شيئًا حتى تلك اللحظة.

حتى في البيت كان قد تغير حالي لكنني لم أكن قد شعرت به، إلا أن أمي كانت تقول لي بأنك تنهضين من المائدة سريعًا، وأصبحت تغضبين من أدنى مسألة.

فكرت في الأمر عما يحزنني؟

فكل شيء كان مثل الأول، وأنا الوحيدة التي تغيرت، كما لو أني قد فقدت شيئًا.

تمعنت في التفكير، فوجدت الشيء المفقود؛ فقد كنت أحس بالفرحة عند رؤيتي لوحيد.

قلت في نفسي..

ـ لعل هذا هو الحب!.

سعلت مريم، ثم تنفست نفسًا عميقًا، واستمرت في كلامها:

ـ لم أكن أرغب في الحب؛ لكني كنت قد وقعت في الحب، هل تعلم؟ فقد رأيت علامات الحب، فقد حدث تغيير في دعائي بعد الصلاة؛ حيث أضفت إلى دعائي شخصًا آخر، فبالإضافة إلى أمي ووالدي وأخي كان هناك شخص آخر أدعو له معهم رغم أني لم أكن أريد ذلك إلا أنه بعد الانتهاء من كل صلاة كانت صورة وحيد تتمثل أمام عيني. لم أكن أريد له الشر، كنت أدعو الله أن يرزقه السعادة الدائمة. وبمرور الوقت ازداد خوفي عليه فصورة وحيد كان تتمثل أمامي أثناء الصلاة وازدادت سجدات السهو عندي.

فقد دخل حياتي شخص غريب، وأصبح الأقرباء غرباءَ عني.

قمت بإيقاف الفلاش الذي به حديث مريم، صمت برهة فسمعت طرق الباب. ذهبت إليه، فقد كان ابن الجيران أخبرني بأن لا أطبخ غدًا وأنه سيقوم بإحضار الطعام من بيته.

رفضت في بداية الأمر لكن مع إصراره على ذلك وافقت على مضض.

أخذت عددًا من الأخشاب الجافة من فناء البيت ودخلت الغرفة وقمت بوضع أحد الأخشاب على الجمر الملتهب في المدفأة، وأعدت الجلوس أمام الكمبيوتر. لكن تم طرق الباب ثانية عدت إلى الباب فإذا بطفلين يتسولان فأخرجت ورقة نقدية من فئة العشرة وأعطيتها لأحدهم فنظر إلي الثاني بعيون منكسرة، ولم أكن أملك مبلغًا آخر من نفس الفئة وبخلت على إعطائه العملة من فئة مائة روبية؛ فقلت لهما: أنتما شريكان في هذا المبلغ بالتساوي.

أغلقت الباب. لم أكن قد دخلت الغرفة حتى سمعت أصوات الشجار من الخارج إذ اختلفا على تقاسم المبلغ.

جلست أمام الكمبيوتر وكانت مريم قد أضافت:

ـ لم أكن أرغب في المذاكرة، كما لم أكن أرغب في سماع كلام أمي وأخي الصغير، فكل شيء قد تغير، فقد حدث تغيير كامل في حياتي. التغيير الذي سلب سعادتي، نسيت الأكل، أسهر حتى وقت متأخر من الليل.

سيطر القلق على أمي، أخذتني إلى المستشفى، وطلب الطبيب إجراء عدة فحوصات، وصف لي الدواء، إلا أني كنت أعلم أن كل ذلك لن يجدي نفعًا؛ فأجهزة المختبرات لم يكن بإمكانها علاج الحب.

وبدأ الغم يأكلني يومًا بعد يوم، ولم يكن أحد غيري يعلم السبب، حتى وحيد نفسه لم يكن يعلم ذلك.

سمعت طرق الباب مرة أخرى، كنت أعلم أنه متسول؛ لأن اليوم يوم جمعة وعادة يكثر المتسولون في هذا اليوم. مسكت نفسي فلم أخرج إلا أنه زاد طرق الباب فقمت بإيقاف الكمبيوتر وبحثت في جيب المعطف عن العملة ولم أجد أية خردة فيها.

كان تفكيري صائبًا؛ فقد كان بالباب امرأتان مسنّتان ومعهما طفل في السابعة من العمر قد تشققت وجنتاه من شدة البرد.

لا أتذكر بأنني دفعت لأي متسول أكثر من عشرة روبية؛ لكثرتهم فلا تستطيع أن تدفع للجميع لكن عيون الطفل قد أثرا فيّ؛ فقد أحسست بأن عينيه قد نزع منهما الروح وكأنها قد غطيت بكيس بلاستيكي أسود لم أقابل في حياتي شخصًا يحمل في عينيه البؤس واليأس مثل هذا الطفل.

دفعت له عمله من مائة روبية وأغلقت الباب.

دخلت الغرفة، لكن صورة الطفل كانت تتردد في ذهني، ثم انتبهت إلى نقطة أخرى ألا وهي أن أكثر المتسولين في مدينة كابل هم من عرقية البشتون.

استلقيت بالقرب من المدفأة للحظات ثم تذكرت حديث مريم، جلست على الكرسي وكان مما قالت:

ـ مضت الأيام، حيث كنت ألتقي بوحيد في الجامعة على انفراد. بالإضافة إلى ذلك فقد كان وحيد يحدثني على انفراد لفترات أطول، فقد كنت استمتع بحديثه. وكان يقوم بالاتصال بي أحيانًا. كنت أشعر بأنه يحس بأنني قريبة منه لكنني لم أسمع منه أية كلمة عن الحب أبدًا.

وفي أحد الأيام كنت أقف مع مجموعة من الفتيات، وكان الجو حارًّا، فاتفقنا على الذهاب لشراء الآيس كريم. وعندما تحركنا لَمْحت وحيد وهو يدخل الفصل، فتحايلت على الذهاب معهن وذهبت إلى وحيد ودخلت الفصل فإذا هو جالس على المقعد فالتفت إليّ بعينيه الكبيرتين السوداوين وشكله يوحي بأنه مهموم فقال لي بصوت خافت:

ـ أعطني المشورة!

نظرت إليه باستغراب، مسح بيده شعر رأسه الأسود وقال:

ـ إخواني في لندن، طلبوا مني اللحاق بهم.

ارتعدت فرائسي وقعدت على الكرسي.

وأضاف وحيد:

– منذ سنة يلحّون علي، فعندهم مطعم يقولون بأن شغلهم كثير، ولا يستطيعون الاعتماد على الغرباء.

ثم صمت وبعد أن نكس رأسه إلى الأسفل قال:

ـ لكنني أرغب أن أنهي الجامعة، ولا أريد الغربة عن الوطن.

تملكني البكاء وكدت أن أصرخ، فنهضت من مكاني، ونادى عليّ وحيد:

ـ إلى أين تذهبين!، ما رأيك في الموضوع؟

خرجت إلى الممر حيث الزحام فلم أستطع أن أتمالك نفسي، فتحت باب الصف المقابل لم يكن به أحد، جلست، ودمعت عيناي، وحاولت أن لا يسمع أحدٌ صراخي.

وبعد مرور لحظات فُتح الباب، ودخل أحد الطلبة وبدأ ينظر إليّ باستغراب.

قمت من مكاني، وخرجت من الجامعة واستقللت سيارة أجرة وبعد ساعة كنت قد وصلت إلى البيت، وادَّعيْت لأمي أن رأسي يؤلمني.

دخلت غرفتي وألقيت بنفسي على السرير.

أحضرت أمي الغداء لكني لم أستطع أن أتناول حتى ولو لقمة واحدة.

وفي الظهر رن جرس الهاتف، وكان على الطرف الآخر وحيد يسألني عن سبب غيابي المفاجئ.

ماذا كان يمكن أن أقول له؟ فقد ادعيت المرض.

أدينا امتحان الفصل الأول، وكانت النتيجة رسوبي في ثلاث مواد.

مضت الأيام، وحصل وحيد على تأشيرة الدخول إلى بريطانيا، لم يكن باستطاعتي وداعه وجهًا لوجه؛ حيث غبت عن الدراسة لمدة أسبوع، وودعته عن طريق الاتصال، آهٍ.. فقد ذهب وحيد وأخذ قلبي معه .

هذا كل ما دونته من حديث مريم الذي امتد لثلاثين دقيقة.

مضى اليوم، وفي المساء كان عندي ضيف كبير السن، وقد أتى من القرية للعلاج سهرنا إلى ساعة متأخرة من الليل، يسرد القصص القديمة. كلامه لا بأس به إلا أنه في الغالب كان مكرَّرًا، ويسرد القصة بتفاصيلها الدقيقة.

وفي اليوم التالي كنت معه حتى وقت الغداء أخذته إلى عدد من الأطباء وتحرك إلى القرية في تمام الساعة الواحدة ظهرًا مع كيس مملوء من الدواء.

دعا لي كثيرًا أثناء الوداع. وفي المساء نمت مبكرًا.

***

الفصل الرابع

في الصباح وبعد وصولي إلى المكتب، لم أجد أية رسالة إلكترونية من مريم. مضى اليوم، وقبل انتهاء الدوام جلست أمام الكمبيوتر، لم أجد شيئًا.

وفي المساء كنت أقوم بالطبخ فإذا باتصال يرد من مريم كان صوتها ضعيفًا كانت تسعل بعد كل جملة وأخبرتني بأن سبب عدم إرسالها للحديث هو كثرة السعال. تحدثت قليلًا ووعدت بأن ترسل بقية الحديث في الصباح. كما أني لم أرغب في أن تتحدث كثيرًا، وكان طقطقة البصل يخرج من القدر وهي تتحمر.

وفي مساء نفس اليوم في تمام الساعة التاسعة وردني اتصال آخر من مريم كانت تبكي.

لم أرد أن أسألها عن السبب تركتها تبكي. وفي الأخير اعتذرت، وأخبرتني بأنه لا يوجد شخص آخر لتبوح له ما في قلبها.

مريم كانت تكرر بأنها لا تستطيع أن تنسى الدم المسال من أذن أخيها الصغير.

كنت صامتًا فلم أكن أعرف القصة لأشاركها في الحديث عنها. انقطع الخط، نظرت إلى الشاشة فقد بكت مريم لمدة خمس دقائق متواصلة.

***

فتحت نافذة السيارة من على جبل خير خانة، مد أحد زملائي يده إلى الخارج وقال مبتسماً: برد قارص.

مر هواء بارد أمام وجهي.

نخرج كل يوم اثنين إلى المناطق الريفية ونقوم بتدوين ملاحظات المستمعين للبرامج الإذاعية التي يقوم بإعدادها الزملاء؛ لأخذها بعين الاعتبار في البرامج القادمة.

كنا ثمانية أشخاص مع السائق وكنا قد قصدنا زيارة مديرية استالف الواقعة شمال مدينة كابل.

على الطرف الآخر من جبل خير خانه مررنا بمئات من الأحياء الجديدة، وقد بنيت فيها المنازل الجميلة متعددة الطوابق، وقد غطّاها الثلج تساوي في قيمتها مئات الآلاف من الدولارات.

مرت السيارة مسرعة على تلك الأحياء الجميلة حتى القرى البعيدة قد استبدلت البيوت الطينية فيها ببيوت عصرية، وترى في وجوه أهلها الطراوة والسعادة. وبعد كل مائتي أو ثلاثمائة متراً تمر أمامنا لوحة مدرسة ابتدائية أو ثانوية.

تذكرت سفر الأسبوع الماضي إلى ولاية غزني، كنت قد ابتعدت نفس المسافة من مدينة كابل لكني لم أر أي أثر للجدران الإسمنتية، ولا شخصًا يمكن أن ترى في وجهه السعادة، فالسيارات الحديثة والشارع المسفلت الوحيد هو وحده الذي يدل على أننا في القرن الواحد والعشرين.

استغرقت الرحلة الساعة والنصف، وصلنا الساعة العاشرة إلى البلاط الملكي في منطقة استالف، نزلت من السيارة رأيت إطارات السيارة نظيفة

دون أن يصيبها أي غبار؛ حيث مشينا كل هذه المسافة على شارع حديث مسفلت.

يقع البلاط الملكي على تل مرتفع تغطيه أشجار البلوط القديمة، ويحيط به من الجانبين مجموعة من المنازل. وعلى قمة البلاط وقفت بجانب شجرة عالية قد يبس نصفها ونصفها الآخر يظهر أنه قد تم حرقه.

سمعت صوتًا آتيًا من قريب:

ـ هذا من زمن الحرب.

التفت إليه فإذا برجل عجوز يجلس تحت أشعة الشمس للتدفئة، فحكى لي قصة الأشجار القديمة، وقال إن تلك الأشجار عمرها أكثر من مائة وخمسين عامًا، وقد احتفظنا بالأشجار التي تضررت بفعل الحروب التي مرت على المنطقة كذكرى.

جلت بنظري إلى الأسفل وكان بجانب المياه المتدفقة وسط الثلوج سوق مزدحم، تلمع فيه الأواني الإستالفية.

العجوز كان صادقًا في كلامه فقد اختفت علامات الحرب كليًّا حتى الجبال المغطاة بالثلوج كانت تبدو فيها الحياة.

ناداني زميلي، ذهبت إليه، فإذا بعدد من الأطفال قد اجتمعوا تحت شجرة يستمعون إلى أحد البرامج الإذاعية. كانوا صامتين ويحدقون في المذياع.

سألهم زميلي عددًا من الأسئلة حول البرامج الإذاعية فكان كلهم لديهم معلومات وافية عن البرامج.

سألت فتاة ذات الاثني عشر ربيعًا:

ـ مع أنك في أجازة مدرسية حاليًا فلم تحملين معك حقيبتك المدرسية؟

أشارت بإصبعها إلى السوق الواقع في الأسفل، وقالت بأن دروسًا خصوصية تعقد في الشتاء، فيأتي الأولاد والبنات من القرى المجاورة للاستفادة منها استعدادًا للسنة القادمة.

نظرت إلى جهة الغرب فرأيت قمة الجبل الأبيض الممتد تلمع من انعكاس أشعة الشمس عليه، إلا أن في الطرف الآخر من الجبل ما زالت الحرب دائرة وثلوجها كانت قد تلونت بالسواد وجدرانها ملطخة بالدم. وكان كبار السن يحكون للصغار بالبشتو: كان يا ما كان في سالف الدهر والأزمان كان هنا مدرسة..! وأما هنا في هذه المسافة القريبة فكان كبار السن يحكون بالفارسية: كان يا ما كان وفي قديم الزمان حرب، وهذه الحرب قد أحرقت أشجار استالف.!

هزني صوت زميلي:

ـ تعال ننزل إلى السوق.

أعجبتني الفكرة، بقينا حتى الساعة الواحدة في استالف. أنهى زملائي لقاءاتهم مع الناس، دونوا ملاحظاتهم حول البرامج، ورجعنا إلى المكتب في الساعة الثالثة.

فتحت البريد من أول وهلة، وقمت بنسخ حديث مريم في الفلاش. وعند الغروب كنت قد وصلت إلى المنزل.

ومما قالته مريم:

– كان الوقت بالنسبة لي كالشمس وأنا ككرة الثلج سرعان ما برز عظام كتفي، وتحولقت حول عيني خطوط سوداء، وكنت لا أطيق النظر في المرآة المنصوبة على مدخل صالة المنزل فأمر سريعة من أمامها.

بعد ثلاثة أشهر رن هاتفي وكان على الطرف الآخر وحيد، تحدث قليلًا، وأخبرني بأنه مشتاق إلى زملاء الصف.

كان كلامه صعبًا علي؛ حيث أشركني مع بقية الزملاء، إلا أني طمأنت قلبي بأنه ما زال يتذكرني ويحتفظ برقم هاتفي.

كنت صامتة، لم تكن فيَ قوة، وزيارة القبور هي وحدها التي كانت تريحني. لكن بعد فترة عاد الأمل إلي، فقد وصل أحد أقربائي البعيدين مع أولاده إلى لندن.

كلمت والدي عن الذهاب إلى لندن، وعبرت له عن أحلامي، وذكرته بالعيش الرغيد الذي ينتظرنا لكنه رفض قائلًا: بلدنا أحسن لنا؛ حيث نحصل على لقمة العيش، مالنا وللغربة.

جلست مع أمي، وبدأت في مدح لندن حتى جف حلقي. ومع ذلك كان جوابها الرفض.

لم يكن لدي حيلة، همست في أذن أخي الصغير، وملأت ذهنه بالأوهام الخيالية، فاقتنع سريعًا.

فأصبح لدينا معارضين اثنين.

بدأ الأخ والأخت كلاهما يتحدثان يوميًّا عن الحياة الخيالية، يحكيان، ويريان مستقبلهما الباهر أمام عينيهما.

مثل هذا الحديث لم يكن يعجب والداي. في البداية كانا ينصحان، ويحاولان إرجاعنا إلى الحياة الواقعية، إلا أنه بمرور الوقت أثر فيهما الكلام فبدءا يستمتعان وينصتان للحديث عن لندن.

وفي يوم من الأيام ذهبت أمي لزيارة الأقرباء ولما رجعت بدأت تتحدث عن لندن فقد رأت صور أقربائنا وأولادهم في لندن التي أرسلوها وكانت تقول بأن أولادهم كانوا في نعيم.

وكانت مما قالت بأنه يتم منح اللجوء للأسر المهاجرة بسهولة.

نعم! فقد رضخ أبي فلأول مرة نراه يشتكي من رائحة المياه العفنة في الجدول الواقع بين محله وبين منزلنا، ومن الغبار المتطاير في شوارع كابل.

حصلت على الفرصة، بدأ لوني يعود إلى طبيعته، وبدأت أحب الحياة من جديد، ورأيت مستقبلي مع وحيد، وأعدت قراءة كتب اللغة الإنجليزية التي درستها من قبل.

تمكن أبي بمساعدة زملاء له من العثور على شخص مهرب، وطلب مبلغ ثمانية عشر ألف دولار لكل شخص، إلا أن الاتفاقية كانت فيها شفافية فقد اتفق والدي معه على إيداع المبلغ عند إحدى محلات الصرافة في كابل وعند الوصول إلى لندن يتم الاتصال بالصراف لإخباره بالوصول إلى لندن ويستلم المهرب فلوسه وهذا كل ما في الأمر.

أمي لم تكن يعجبها السفر عن طريق البر، وكانت وجهة نظرها بأن السفر من خلاله محفوف بالمخاطر، لكن والدي كانت وجهة نظره بأن السفر عن طريق الجو يحتاج إلى مبالغ كثيرة، وقال بأنه يتطلب مبلغ ثلاثون ألف درهم لكل منا، ومع ذلك فإن السفر لن يكون كله عن طريق الجو فلا بد أن تعبر حدود بعض الدول متسللًا.

ونثرت بعض الملح على كلام أبي وحكيت لهم قصة أسرة ذهبت عن طريق البر وها هم الآن في لندن. ثلاثتنا كنا على رأي واحد حتى رضخت الأم لرأينا.

منزلنا كان في منطقة عشوائية أحضر أبي شخصًا وباع له المنزل بخمسة وسبعين ألف دولار، كما قمنا ببيع أثاث المنزل والمحل وقام بتحويل مبلغ مليون روبية إلى الدولار وذهب برفقة الشهود إلى محل الصرافة ودفع مبلغ اثنان وسبعون ألف دولار للصراف، وقمت أنا وأمي بوضع المبلغ المتبقي في جيوب الفانيلا التي أعددناها خصيصًا لهذا الغرض. وكانت أوراق شجر التفاح الموجود في فناء المنزل قد بدأت بالاصفرار عندما تحركنا من البيت.

صمتت مريم، ثم أخذت نفسًا عميقًا وبدأت بسرد الكلام:

ـ لم نواجه أية مشكلة حتى وصولنا إلى منطقة نيمروز، فقد أمضينا الليلة في قندهار ووصلنا في ظهر اليوم التالي إلى منطقة الرباط.

رباط هي المنطقة التي تربط باكستان وإيران بأفغانستان.

نزلنا من السيارة في أحد الأسواق الصغيرة، وفي أثناء مشينا ربتت أمي على كتفي عدة مرات وأفهمتني أن البرقع الذي ألبسه يمسح الأرض

من ورائي، تملكني الضحك عندما نظرت إليها عبر فتحات البرقع فإذا أطراف برقعها قد التوت في رجليها مرتين إذ لم تكن تستطيع أن تسير فيها.

وبعد لحظات وقفنا أمام محل لبيع المشتقات النفطية، قام والدي بإعطائه ورقة صغيرة، وتحدث مع صاحب المحل، فأشار لنا بأصبعه نحو الأمام. أسرعت أمي إلى إمساك أخي الصغير من كتفه، وارتفع صوت أزيز محرك الدراجة النارية.

أسرعنا الخطى خلف والدنا ودخلنا إلى زقاق ضيق، وسرنا فيه حتى وقفنا أمام محل في طرف منه. قام والدي باستيقاف شخص يركب الدراجة الهوائية، فنادى الرجل على الطفل وتحدث معه بلغة لم أفهمها، ظهر لي أنها لغة بلوشية.

سار الطفل أمامنا وسرنا خلفه، قمت برفع ستار متسخ، عطست، فإذا بغرفة واسعة ممتلئة بدخان النرجيلة. التفت يمنة ويسرة بشكل سريع فإذا بعدد من الأشخاص قاعدين على سرير عليه آثار زيوت وخرخرة النرجيلة تخرج من أفواههم. ويجلس إلى جانبهم شابان على كرسي بلاستيكي ويخرج من فم أحدهم دخان أبيض، وكانت النرجيلة ممتلئة جمرًا، وصعدنا خلف الطفل على درج خشبية، الممر كان ضيقًا وعلى جانبيه أبواب خشبية ملطخة بالزيوت. وقفنا عند بدايته ونزل الطفل سريعًا إلى الأسفل.

حضر إلينا شخص أسمر نحيف ناوله أبي الورقة. ودون أن يتكلم أخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب. دخلت أنا وأخي الصغير مع أمي إلى الغرفة الصغيرة بينما بقي أبي مع الرجل في الخارج.

أغلقت الباب، ومدت أمي يدها إلى النافذة، فاختلطت رائحة الغرفة مع الهواء الآتي من النافذة.

ضحكت عندما نظرت إلى وجه أمي فقد اغبَرّ وجهها الأبيض بمقدار فتحات البرقع. نزعت البرقع من رأسي ونظرت في أرجاء الغرفة فعلقته على مسمار صَدأ على الجدار الطيني.

أطل أخي برأسه من نافذة الغرفة ذهبت إليه ووضعت ذقني على كتفه المغطاة بشعره الأسود الكثيف، ونظرت إلى الأسفل فإذا بأحد الباعة يحدق النظر إلي. تأخرت خطوة فحال بيني وبينه الإطار الأزرق للنافذة.

وكانت تظهر في المقابل الأسطح البنية للمحلات؛ حيث تكدست عليها الأوعية المتهالكة والبراميل الملطخة بالزيت، وتقع بعدها تلال منخفضة وبعدها صحراء يخيل للناظر أنها نهر جارف. سمعت صوت القفل فالتفت إلى أمي فإذا بها قد قامت بفتح شنطة يدها الكبيرة، وتنظر إلى المرآة وبيدها قطعة قماش تنظف بها الغبار حول عينيها.

صرخ أخي فجأة، وجرى نحونا ووقف عند الباب. وقد اصفر لونه وينتفض كما ينتفض العصفور بلله القطر، ويحدق بعينيه نحو النافذة. نظرت إلى النافذة، ورجعت إلى الخلف سريعًا، رأيت تحت زجاج النافذة بُرصًا بين الحياة والموت.

دخل والدي إلى الغرفة وبيده كيس بلاستيكي مملوء مد يده إلى البرص ورفعه من على الأرض بواسطة منديل وقام برميه عبر الجزء المفتوح من النافذة. جلس والدي على مرتبة متسخة وفتح الكيس، وبدأنا بتناول

الكعكة مع البيبسي. لم يكن يعجبنا إلا أن والدي كان يقول بأن هذا أنظف من أكل المطاعم.

وبعد الغداء استلقينا ممددين؛ حيث كنا نشعر بإرهاق، نظرت إلى أخي فكان لا يزال ينظر إلى موضع البرص، وقد اختلطت رائحة العرق مع رائحة الزيوت.

سألت والدي:

ـ أبي ما سبب وجود عدد كبير من محلات بيع المشتقات البترولية هنا؟

قال:

ـ في الطرف الآخر من الحدود توجد مدينة زاهدان الإيرانية ويتم تهريب النفط منها بواسطة البراميل.

سكت والدي، نظرت إليه؛ فأخرج من كم قميصه الأبيض قملة كبيرة سوداء قام إلى النافذة وأخرج يده منها. نظر إلي وابتسم، عاد إلى السرير، واستلقى عليه وتمتم قائلاً:

– السفر إلى الخارج يحمل معه هذه الأمور. نظرت إليه أمي ولم تكن تعلم بالقصة.

جاءتني مكالمة، فأوقفت الفلاش. وكان على الطرف الآخر من الخط مريم، وكانت تريد الاطمئنان على وضوح التسجيل. أخبرتها أنني أجلس أمام الكمبيوتر. اعتذرت وقالت بأنها ستعيد الاتصال بي بعد ساعة. مددت يدي إلى لوحة مفاتيح الجهاز وكان مما قالته مريم:

- وفي المساء تم طرق الباب، خرج والدي إلى الممر رجع بعد ربع ساعة، وقال سنمكث هنا حتى الغد. غضب أخي، إلا أن أمي كانت تطلب الخير من الله.

لم أستطع النوم حتى وقت متأخر من الليل، وأخي كان ينام إلى جانب والدي، كان يبدو عليه الأرق، لم أكن أعلم هل السبب هو القمل أم البق؟ وكان يلدغني أيضًا، كما لم أستطع تغطية رأسي من شدة رائحة البطانية.

وفي الصباح وحتى الظهر كنت أقف وراء النافذة أشاهد السوق، وكنت أرى أحيانًا من بين العمائم والقلانص شخصًا حاسر الرأس فكنت أتعقبه؛ حيث كان يبدو أنظف من غيره، وكثير منهم كانوا يلبسون البناطيل حسب الموضة بدا لي أنهم أولئك الأفغان الذين تم إبعادهم من إيران حديثًا.

فُتح الباب ودخل والدي برفقة أخي، وقاما بوضع عدد اثنين من الأكياس البلاستيكية على أرضية الغرفة. نظرت إليه أمي نظرة استفهامية فذكرها والدي بأن في إحداها عدد اثنين من الحجاب الإيراني وأخذ الكيس الثاني معه ودخل الحمام.

قال أخي مستمتعًا:

- تخرج مياه دافئة من التلال القريبة.

لم أفهم كلامه.

أضاف أخي:

- هناك قريبًا من السوق عددٌ من التلال، فيها عيون للماء، مددت يدي إليها بنفسي؛ فقد كانت تنبع منها مياه دافئة.

سمعت صوت أمي:

ـ كيف يلبس هذا؟

نظرت إليها، فإذا بقطعة سوداء طويلة قد غطت ركبتيها. قمت، وأخذت القطعة وقستها على جسمي فكانت تصل إلى كعبيَّ.

قلت: سهل جدًّا، غطي بها نفسك مثل ما تتغطين بالشال الأفغاني.

سمعت صوت أبي:

– كيف أبدو؟

نظرت إليه ببطء فقد ارتدى فوق البنطلون الأسود قميصًا أبيض اللون. فهذه أول مرة أراه في بدلة مدنية. قامت إليه أمي وعدلت ياقة قميصه وقالت بصوت هادئ:

ـ من أين حصلت عليه؟

قال بعد أن أشار إلى أخي الصغير بالدخول إلى الحمام:

ـ هذه منقطة حدودية يمكن أن تحصل فيها على أي شيء تريده.

تراءى لي منزلنا فقد كان هناك بالقرب من التلفاز صورة والدي في ملابسه العسكرية لم يكن يظهر على وجهه أي أثر للشيخوخة، وحتى هنا بدا لي وسيمًا وشابًّا في البنطلون. خرج أخي، فقد كان يبدو في بنطلون الجينز أكثر وسامة. لبس والدي المعطف فوق القميص وقال إن السفر سيكون هذا المساء.

قمت بإيقاف حديث مريم. اقتربت من المدفأة وكانت قد انطفأت فتحت بابها ورأيت أن الحطب لم يحترق كله قمت بالنفخ فيها فطارت ذرة كبيرة من الرماد ودخلت عيني، تركت المدفأة على حالها وأشغلت التلفاز وقمت بسحب البطانية وغطيت بها رجلي.

لم أجد برنامجًا مفيدًا، أو على الأقل لم أجد برنامجًا حسب ذوقي فقمت بإطفائه، وبدأ الهاتف يصدر رنة فقمت بوضع الشاحن في مكبس الكهرباء. وعدت وتغطيت بالبطانية، كان صوت الهواء خارجًا من فتحة المدفأة. رن الهاتف زحفت إليه مع البطانية فكانت مريم. استلقيت بالقرب من مكبس الكهرباء فشعرت بالبرودة من ناحية الظهر؛ فقد كان الأسمنت تحت السجاد باردًا.

كانت مريم تبدو سعيدة إلا أن صوتها كان مخلوطًا بالسعال. سألتها عن سبب سعادتها ذكرتني بأنها منذ شهرين رأت لأول مرة شخصًا أفغانيًّا. قطعت كلامها:

ـ كيف عرفتيه؟.

تنفست مريم ثم قالت:

ـ لا أفهم فقد كانت لوسي تقف على رأسي لتقوم بربط المغذي، فأحسست بأن رائحة الوطن آتية من الخارج، فرجوت منها أن تستطلع من في الخارج. أبدت موافقتها بهز رأسها، وأنها ستستطلع الخبر بعد وضع المغذي. تبدل شكي باليقين فقد كان هناك شخص يتحدث عبر الهاتف بلغة البشتو. نهضت مباشرة، فخرجت إبرة المغذي من يدي فمسكتني لوسي من يدي وصرخت:

ـ هذا بشتوني.

نظرت إلى لوسي بحيرة واستغراب وطلبت منها أن تستطلع الممر. امتثلت لأمري، إذ دخل رجل طويل القامة قد تجاوز الأربعين من عمره لم ألاحظ عليه أي حيرة. وقف الرجل على رأسي ومسح على مفرق رأسي وقد رسمت على محياه ابتسامة جميلة. فهمت أن لوسي قد أخبرته عن أمري. تحدث قليلًا، وقال بأنه من محافظة بكتيا ويعيش حاليًا في أمريكا، وقد حضر هنا مع زوجته الإيطالية للسياحة، وقد التوت رجلها أثناء التجول؛ فقام بإحضارها هنا إذ لم يجد مستشفى أقرب منها. لم يسألني أية أسئلة. جلس الرجل للحظات وجاءه الاتصال فهمت من كلامه أن زوجته في انتظاره. عطست مريم ثم صمتت ثم ضحكت فجأة:

– أيوه. ماذا عملت بالقصة؟

ضحكتُ وقلتُ:

– أسمعها وأستقصي منها المفيد.

ضحكتْ:

ـ الكلام المفيد.

أدركت أنه ما كان بي أن أقول هذا فقلت:

ـ غرضي لم يكن هذا، فأنت تفهمين أن الكتابة الأدبية تحتاج إلى تمحيص.

ضحكت وقالت:

ـ لا. بل كنت أمزح.

اطمأن قلبي.

قالت:

ـ هل لديك ثمة أسئلة؟

ـ لا.

ثم قالت وهي تضحك:

ـ لكن لدي سؤال واحد.

ـ اسألي.

هل أسرد قصتي كلها بالبشتو أم يمكن أن أخلطه بالفارسي الإيراني والإنجليزي؟

تملكني الضحك:

ـ لم أفهم قصدك!.

قالت:

ـ اسمع فقد التقيت في الطريق مع أناس مختلفين فبعضهم كان يتحدث الفارسية، وبعضهم كانوا يجيدون الإنجليزية، كما أنه ثمة أناس يتحدثون بلغات غير مألوفة، مازلت أتذكر عباراتهم. والآن الرأي رأيك.. هل تريد أن أنقل لك كلامهم بلغاتهم أم أنقلها لك بالبشتو فقط؟.

ـ لا، دعِي الناس ولغاتهم، انقلي كلامهم بالبشتو فقط.

ـ حسنًا.

ـ هل لديك سؤال آخر؟

ـ لا، فَـ لوسي تقف على رأسي، وتقول لي بأنه يجب عليك الاستحمام.

انقطع الخط.

نظرت إلى الشاشة فقد بقي حديث مريم لكنني لم أكن أطيق تدوينه. قمت وأشغلت إحدى الأغنيات الهندية القديمة في الجهاز. أطفأت المصباح، ومددت طويلًا، بينما صوت الموسيقى الرقيق يتردد صداه في أذني. فجأة سمعت قفزة الهر مصحوبة بأصوات سقوط الأواني على الأرض. جريت بسرعة إلى الدهليز، خرجت قطة متسخة من المطبخ، نظرت إلى الأرض فلم أجد على البساط الأحمر- المفروش بأرضية الدهليز- شيئًا يمكن أن أرمي به القطة فخرجت القط من باب الدهليز المفتوح بسهولة.

ما إن وصلت إلى باب المطبخ حتى تفاجأت بوجود قطة أخرى وكانت تمشي بهدوء وتعرج بقدمها اليسرى، وصلت إلى باب الصالة قبلها فتوقفت؛ حيث ضيعت عليها الطريق فعادت ودخلت المطبخ. أغلقت الباب وذهبت إلى المطبخ فإذا بقطع الأواني المكسورة وحبات الأرز مع العظام الممضوغة قد تناثرت فوق أرضية المطبخ المكسوة بالسيراميك الملونة.

أولع المنظر كبدي، مددت يدي إلى المكنسة، ووقفت القطة خلف عبوة الغاز دون حراك، وتنظر إلى عيني، كان يبدو عليها الاضطراب والحيرة. اقتربت منها ورفعت المكنسة وهي تحدّق فيّ، فرأيت العصمة في عينيها. نظرت القطةُ إلى عيني للحظات، وكأنها تقول لي بلسان حالها من خلال عينيها:

ـ لا نُلام على ما نقوم به، فماذا نأكل وسط هذه الثلوج!؟

لا أعلم؛ لكن هذا ما استنتجته من النظر إلى عينيه. أفسحت الطريق للقطة، فخرجت إلى الصالة، ووقفت عند باب الصالة، ونظرت إليّ وكأنها تريد أن تفهمني أن أحرص على إغلاق باب الصالة دائماً، وأن لا أترك الأواني متسخة.

قمت بتنظيف وتجميع قطع الأواني المكسورة بواسطة المكنسة، وعندما رجعت إلى الغرفة كانت الأغنية قد انتهت. شعرت بالبرودة، أشعلت المصباح، واقتربت من المدفأة، ومسكت عود الكبريت إلى الحطب الزيتي فاشتعلت النار بالسرعة والتففت حول الحطب نصف المحترق.

لم أكن أستطيع النوم فجلست أمام الكمبيوتر.

وتحدثت مريم قائلة:

ـ تم طرق الباب بعد المغرب، خرج إليه أبي، وعاد سريعًا قائلًا:

ـ علينا أن نتحرك حالاً.

لم تكن ثمة حاجة للاستعداد فقد غطينا أجسامنا بالحجاب، وقام أبي بحمل حقيبة الظهر التي فيها ملابسنا الشخصية، وهي كل ما كان لدينا.

نزلنا إلى الأسفل، وأسرعنا الخطى خلف شاب نحيف، لم نكن قد شعرنا بالتعب حتى دخلنا أحد المنازل. فناء المنزل كان كبيرًا، وفيه مجموعة من الناس، أكثرهم كانوا شبابًا يافعين، فهمت من حقائبهم أنهم ينوون السفر. وقفنا جنب أحد الجدران، جُلت بنظري في المكان لم أرَ أي

نبات؛ فالأرض كانت كلها ملطخة بالزيوت، ويشاهد عدد من براميل النفط المرمية.

تم فتح باب كبير، فرأينا سيارة شحن صغيرة ذات كبينة واحدة، وأنوارها مسلطة نحو الناس مباشرة.

وقفت السيارة فجرى نحوها الشباب كلٌّ منهم يحاول أن يصعد إليها أولًا.

نزل شخصان من كابينة السيارة، وكانا يتكلمان الفارسي بلهجة إيرانية، وكانا يرجوان من الناس الصعود إلى السيارة بالدور، التي امتلأت عن آخرها حيث كانت ظهورهم بارزة إلى الخارج. أشار السائق نحونا نظرت إلى أبي؛ فقد كان حائرًا، ذهب إليه وفهمت من كلامه أن مكاننا كذلك خلف السيارة.

رأيت والدي يحرك يديه طويلًا، استنتجت منها أنه لا يرى لنا خلف السيارة مكانًا مناسبًا، ثم رجع فلم يكن لنا حيلة أخرى.

ذهبنا فأعد لنا السائق مكانًا خلف الكابينة مباشرة. جلست أنا وأمي في الوسط وجلس أبي وأخي على الأطراف. ومع ذلك فقد كان ساقي يلتصق بظهر الشاب الجالس أمامي.

نظرت إلى السيارة فقد كان يجلس فيها ستة عشر شخصًا. وحضر شخصان آخران فلم يكن هناك متسع فجلسا على الخشبة البارزة في آخر السيارة.

اقترب السائق من السيارة، وطمأن الركاب وطلب منهم أن يمسكوا أنفسهم، وسيكونون بعد الساعة من الآن في مدينة زاهدان.

تحركت السيارة، بعد أن أطفأت أنوارها وكانت تشق طريقها بواسطة ضوء القمر الخافت، وكلما مرت السيارة بحفرة ارتطم ظهري بشدة بالحديد الموجود في السيارة.

كان شابان يتحدثان بينهما بصوت بطيء فهمت منها أن السيارة يطلقون عليها سِيمُرغ، ثم اهتز قلبي عندما قال أحدهم إنه قبل أسبوع تم إطلاق النار عليهم في نفس المكان.

وقفت السيارة ونزل منها رجل كثّ الشارب، وأشار إلى ضوء النور المنبعث من بعيد، وقال إن هذا المكان عبارة عن نقطة مراقبة إيرانية، وطلب من الجميع عدم التحدث، وعدم إشعال السجائر. ثم تحرك وتعقبته حتى اختفى وسط الظلام.

تحركت السيارة ثانية، وكانت تسير ببطء مثل مشية الرجل العادية، كان الجلوس صامتين، لم تكن تصدر منهم أية حركة، حتى لم يكن يسمع صوت تنفسهم. نظرت إلى أخي، فقد انعكس في عينه السوداء الكبيرة ضوء القمر.

تقدمنا، واقتربنا من الأنوار. اقترب الظل منّا وكان نفس الشخص صاحب الشوارب الكثيفة، فتوقفت السيارة، تحدث الرجل مع السائق، فأوقف محرك السيارة ثم تقدم الرجل إلى خلف السيارة، وطلب من الجميع النزول من السيارة عداي أنا وأخي الصغير وأمي بالإضافة إلى طفل صغير آخر، واختار من المجموعة حوالي سبعة أو ثمانية أشخاص أقوياء ومن بينهم أبي واختفى البقية في الظل خلف الرجل ذي الشوارب.

وبدأ الأشخاص المتبقون بدفع السيارة من الخلف فاهتزت وبدأت الإطارات بالدوران. السائق كان يطل برأسه من نافذة السيارة وينظر إلى الإطارات الأمامية؛ للتأكد من أنها تسير في أرض منبسطة، وكنت أنظر إلى الأضواء القريبة، وضوءها الأبيض مسلطٌ على العلم الإيراني.

توقفت السيارة فجأة نظرت إلى مؤخرة السيارة فلم أرَ أحدًا ورفعت هامتي قليلًا؛ فرأيتهم قد انبطحوا على الأرض، شعرت بالثقل على كتفي فإذا بالسائق قد وضع يده على كتفي طالبًا مني الانبطاح.

نظرت إلى النقطة العسكرية فإذا بجندي يحمل بيده مصباحًا كهربائيًّا وضوءه لم يكن تصل إلينا. وقف لحظات ثم عاد ودخل الغرفة. نهض الأشخاص المنبطحون من على الأرض ووضعوا أيديهم على مؤخرة السيارة فتحركت. بعد أن اجتزنا النقطة الحدودية أسرعت السيارة لم نكن نحس بالمطبات أخرجت رأسي من دبة السيارة فرأيت أن السيارة تسير على طريق معبَّد وبدأنا نبتعد عن الأنوار شيئًا فشيئًا.

وكان صوت التقاط أنفاس أبي أعلى من بين بقية الأشخاص المرهقين. وبعد مرور فترة لا بأس بها توقفت السيارة؛ فضوء القمر كان ساطعًا وأما التلال القريبة فكانت تبدو سوداء.

صفر السائق فخرج إليه مجموعة من الأشخاص من تحت الجسر، وركبوا في الدبة، وجلس صاحب الشوارب بجانب السائق. كانت السيارة تسير بسرعة بأنوار مطفأة، وحفيف الرياح يهب علينا بقوة وطرف حجابي قد ارتفع ويكاد يلتصق بوجهي.

وبعد حوالي ربع ساعة من المسير ظهر من بعيد ضوء مصابيح، تقترب منا شيئًا فشيئًا، انحرفت السيارة من الشارع بعد أن هدأت من سرعتها،

سارت قليلًا ثم توقفت واختفى النور من وراء التل. وصاح اثنان من الركاب بصوت واحد:

ـ إنها دورية، دورية شرطة.

وخرجت الأصابع من كابينة السيارة، فصمت الجميع. خرج النور من الطرف الآخر من التل، وكان يقترب من ضوء مصابيح الخافتة للنقطة العسكرية. تحركت السيارة وخرجت إلى الشارع المسفلت، وكانت أسرع من سيرها السابق.

بعد أن تجاوزنا سلسلة التلال، ودخلنا الصحراء وضوء القمر؛ حيث كان الضوء قد عم الأرجاء، بدا لنا عدة أضواء. لم أفهم.. هل كان عبارة عن سوق أم كانت منطقة عسكرية، كان صوت المحرك مزعجًا مع شدة الرياح قابضة على طرفي ردائي تحت ذقني.

فجأة انحرفت السيارة وعلانا الغبار، مسكني أخي من كتفي بقوة، إذ خرجت السيارة فجأة بسرعتها إلى طريق غير معبّد. فجأة سمعت صراخًا:

ـ آه أخي!

نظرت إليه على عجالة، وكان هناك شخص يصرخ في آخر السيارة فانتبهت إلى الخشبة البارزة من مؤخرة السيارة. انتفض قلبي إذ لم أر عليها أحدًا. واختلط البكاء مع صراخ الرجل:

ـ أوقفوا السيارة!

مرت عجلات السيارة على الرمل بسرعة فاختفى الركاب وسط الغبار. قفز الرجل من السيارة وجرى نحو الشارع المسفلت. أخرج صاحب الشوارب رأسه من زجاج السيارة فقال أحد الركاب على عجالة:

ـ سقط أخوه.

تحركت السيارة، فبدأ أبي بالطرق على زجاج السيارة الخلفية بقوة حتى توقفت ونزل منها السائق غاضبًا وقال:

– سبق أن أبرأت ذمتي تجاهكم فمن يسقط يسقط، وأنا لا أستطيع أن أتحمل الأخطار لأجل الآخرين.

صرخ أحد الركاب:

ـ هذا ليس من الإسلام في شيء.

طق..، مدّ الراكب يده إلى وجهه؛ إذ تلقى صفعة على وجهه. وقام أخي بوضع رأسه على كتفي.

رجع السائق إلى مقعده، وتحركت السيارة، وكان يرى من بعيد شخصين.. أحدهما كان يضرب الأرض بيديه ويبكي، وأما الثاني فكان ممدَّدًا في التراب. وانتهى حديث مريم.

نظرت إلى المدفأة، كانت ساخنة، إلا أن حرارتها لم تكن تصل إلى مكان جلوسي.

***

الفصل الخامس

ذهبت في الصباح إلى المكتب، وكان أحد الزملاء قد خطب فتاة يحبها، والزملاء الآخرون كانوا يطلبون منه حلاوة الخطبة، فتم الاتفاق على أن يعمل حفلة شواء الأسماك غدًا بعد الظهر.

وفي صباح اليوم التالي في الساعة الثانية عشر ظهرًا خرجنا ستة أصدقاء، وكان أقرب مكان بالنسبة لنا هي منطقة قلعة النجارين، واستمتعنا بأكل السمك في الهواء البارد، وأثناء احتساء الشاي رن جرس هاتفي، تحيرت فقد كانت مريم إذ أنها كانت دائمًا تتصل بعد المغرب.

ابتعدت عن زملائي؛ لأتمكن من الحديث معها، واعتذرَت عن اتصالها وقت الدوام الرسمي، وبينما نتحدث قالت فجأة:

ـ أسمع أصوات السيارات.

أفهمتها بأننا جئنا لتناول السمك إلى منطقة قلعة النجارين (قلعة نجارها)

تغيرت نبرة صوتها وقالت بسعادة:

ـ هل أنت في التقاطع؟

ـ نعم.

ـ في أي طرف.

ـ على الشمال.

ـ لكن في الطرف الجنوبي منها توجد أسماك جيدة، انظر إليها، فقد ذهبت مع أمي إلى هذا المكان عدة مرات.

نظرت وبالفعل رأيت بخارًا متصاعدًا من القدر الكبير.

قلت:

ـ هل تسمعين؟.

ـ نعم.

صوتها كان حزينًا، إلا أنها ضحكت بعدها فجأة.

– هيا، انظر إلى التقاطع هل ترى رجل المرور العجوز ذا اللحية الطويلة؟

نظرت فقد كان هناك رجل مرور شاب يقوم بتنظيم حركة السير.

وقبل أن أجيبها بـ (لا) قالت مريم بصوت مرح:

ـ كنا نمرّ كل صباح من هذا المكان؛ لأخذ إحدى الزميلات؛ لكنها قامت بتغيير مكان وقوفها بعد ذلك، وكانت تقول بأن شرطي المرور العجوز دائماً يحدق فيّ النظر فاستغللنا هذا وكنا نداعبها ونقول لها كلما مررنا بالمكان.. ها هو العريس ما زال ينتظرك في نفس المكان.

أخذتها العطسة، ازداد عطسها، وبعد هدأت قالت بصوت هادئ:

ـ سامحني.

نظرت إلى الخلف، وكان أحد الزملاء يشير إلى الساعة التي بيده. سمعت صوت مريم المخنوق:

ـ كيف تبدو لك قلعة النجارين (قلعة نجارا)؟

ـ لا شيء، سوى المحلات المنتشرة في الطوابق السفلية من البنايات وأما الطوابق العلوية فقد امتلأت بلوحات الأطباء، واسودت الثلوج المتجمعة على الحواف؛ بسبب الدخان الصاعد من محركات السيارات، بينما الشارع يملأه الغبار.

تنفست مريم الصعداء:

– آه فديت ذلك الغبار.

ثم صمتت لحظة، ثم قالت بصوت مخلوط بالبكاء:

ـ عندي طلب واحد؟

ـ قولي.

ـ تنفس نفسًا عميقًا.

ـ لماذا هذا الطلب الغريب!؟

ـ لأجلي.

تشهقت؛ فكان الغبار مختلطًا برائحة جدول المجاري، أخذتني العطسة، أبعدت الهاتف عن أذني لكني لم أعطس فقربت يدي من أذني. قالت مريم:

ـ أنت محظوظ.

ضحكت.

تنهدت مريم:

ـ أشتاق إلى غبار الوطن. ثم صمتت.

سمعت صوت زميلي يقول بأن علينا العودة إلى المكتب؛ إذ أن هناك أعمالًا لم يقم بإنجازها بعد.

ضحكت مريم فجأة:

ـ أيوه، لقد نسيت مسألة مهمة فغدًا سيقومون بإعادة صبغ ممر المستشفى، ولأجل ذلك سيقومون برفع أجهزة الكمبيوتر، ولذلك فأنا من الصباح مشغولة بتسجيل القصة، وأحاول أن أتمكن من إرسال أكبر قدر من الحديث، متى ينتهي دوامك؟

قلت:

ـ الساعة الرابعة والنصف.

ـ أيوه، إذًا لا تنس بريدي إذا وصلك متأخرًا.

ـ لا بأس إن شاء الله.

ـ سامحني، آخر كلام، إن كنتم تسمعون كلامي اعبروا الشارع فهناك يطهون السمك بشكل ممتاز.

لم أرد عليها فقد كنا قد فرغنا من أكل السمك.

وصلنا المكتب قمت بتنزيل حديث مريم بعد الدوام، وبعد العشاء جلست أمام الشاشة، الكهرباء كان ضعيفة. تذكرت جاري الذي لم يكن لديه كهرباء، وكنت قد زودته بالكهرباء من منزلي. وعلى الفور قمت بقطع الكهرباء من منزله.

عدت، فاشتغل الكمبيوتر، ورن الهاتف وكان جاري أخبرني بأن الكهرباء قد انقطعت عن منزله بينما المصباح الموجود على الباب الخارجي ما زال مضيئًا. لم تبقَ لي حيلة قمت وأعدت لهم الكهرباء.

مسكت المذياع، فقد كانت تتحدث عن الحرب فقط، أطفأتها، تمددت، كنت أتلهف لسماع صوت مريم. كانت الساعة الثامنة فلم يكن لدي أمل بعودة الكهرباء قوية حتى ينام الناس.

ملأت كوب الشاي، نهضت للدولاب باحثًا عن علبة التمر، انقطع التيار الكهربائي، عدت للجلوس في مكاني، شممت رائحة الصوف المبلل، مررت أصابعي على الفرش؛ فأحسست بالسخونة تبين لي بأن الكوب كان مسكوبًا.

امتلأت الغرفة بالضوء وكان قويًّا. ذهبت إلى الكمبيوتر فاشتغل؛ لكنه كان ما زال يصدر أصواتًا اتصلت بجاري وأفهمته بضرورة إطفاء سخان الماء إن كان قد قام فعلًا بتشغيلها؛ حيث لدي عمل ضروري، حدسي كان صحيحًا فقد اختفى الصوت. وكان مما قالته مريم:

– نزلنا إلى قبو يكاد يختنق فيه النفس، وله رائحة الزيت، ويتدلى من السقف مصباحان أصفران.

سمعت صوتًا، وتدحرجت العلبة المعدنية واصطدمت بالجدار، وسقط على السطح الأسمنتي المبلل قطرات بلون بني، نظرت إلى أخي وكان يمعن النظر إلى رجليه، فقد اتسخ طرف بنطلونه الأزرق باللون البني؛ فقد قضى أحدهم حاجته في المكان، قامت أمي باحتضانه وتقدموا إلى الأمام معًا.

القبو كان طويلًا لم يبدو لنا أي مكان يصلح للجلوس عليه فقام أبي بوضع عدد من أكياس الأسمنت جنب الجدار وجلسنا عليها. نظرت حول المكان فرأيت علب الأصباغ الفارغة والمملوءة مرمية على الأرض بجانب بعض قطع الطابوق المتناثر هنا وهناك. لقد كذب علينا السائق عندما أخبرنا أن المسافة هي ساعة ونصف؛ فقد سارت بنا السيارة بين الشوارع والطرق الوعرة أكثر من ساعتين ونصف. كنت أشعر بدوران الرأس، وكنت أحس أن ظهري قد تقطع بسبب الاصطدام بحديد كابينة السيارة.

رأيت ظلًّا على الجدار الأمامي ونزل من الدرج شخص كبير السن بارز الظهر، ويخرج من فمه رائحة الدخان الشديدة. وضع إناءًا معدنيًّا على الأرض، ثم خرج من غير أن يهمس ببنت شفة. التقط والدي الرغيفَ الموضوعَ على الإناء فرأيت فيها أرزًا مسلوقًا أبيض اللون. أخذت قطعة خبز صغيرة، ووضعتها في فمي فكان مثل المطاط لا يمكن مضغها كما أن طعمها كان مخلوطًا بطعم الطين. التفتُّ إلى أمي فرأيتها تحدق في فرشاة اللون المتسخ بالأصباغ. فهمت أنها ما زالت تفكر في ذلك الشاب الذي سقط من السيارة. بينما كان أخي ينظر إلى المصباح.

أدار والدي رأسه فجأة وعطس عطسة فتناثرت حبات الأرز على الجدار حبة حبة. اعتذر، وبعدها لم يمد يده إلى الإناء، واستند إلى الجدار وبدأ ينظر إلى الأعلى، وفهمت من نظراته أنه نادم على الخروج.

الكل كان صامتًا، وأخي قد أسند رأسه إلى كتف أمي مُغمضًا عينيه، ولم ينقص من الأرز سوى حفنة واحدة. بعد مرور وقت لا بأس به أحسست بالثقل في عينيّ.

كان البحر عظيماً وهائجًا غرقت فيه وكنت أرى مياهًا سوداء حركت يداي ورجلاي فقد وصل الماء إلى ذقني.. وكان مرًّا لم أكن أستطيع التنفس وازدادت حركات يدي ورجلي تمكنت من رفع جسمي؛ فرأيت أن أمي وأبي وشقيقي قد أخذهم الموج. أخي كان يصرخ لطلب النجدة.

رأيت ذيل القرش ثم رأيته فاغرًا فاه الكبير وقد برزت أنيابه البيضاء الحادة متجهةً نحو رأس أخي وتصبغ الزبد الأبيض باللون الأحمر. صرخت فدخلت المياه المُرّة إلى جوفي.

جُلت بنظري باحثة عن أمي فلم أرها، نزلت إلى القعر فقد شلت رجلاي ويداي ونظرت إلى الأعلى رأيت ضوء الشمس في وسط المياه الصافية. ورأيت أمي وشعرها المفتوح المتناثر يتحرك يمينًا ويسارًا متجهة نحو القعر وتخرج من فمها فقعاتُ الماء. خرج من بين النباتات البحرية قرش ضخم وقد التصقت بأسنانه قطعة من قميص شقيقي، واتجه إلى ناحية أمي. صرختُ، لكني لم أستطع إسماعها صوتي، ومرت من أمامي فقعات الماء متجهة إلى الأعلى. اتجه إليها القرش فاغرًا فاه، أغلقت عيناي ثم نظرت إلى أمي لم أرها ورأيت الدم الخارج من فم القرش وقد اختلطت بالماء. ورأيت شعرها الطويل قد علقت بين أسنانه الحادة ثم اتجه القرش باتجاهي فاغرًا فاه. وبينما أنا أصرخ كان والدي يريد الوصول إليَ؛ لكنه لم يتمكن فالماء كان يأخذه بعيدًا.

سمعت صوتًا واهتز كتفي فتحت عيني فرأى والدي قد أخذني في حضنه، وأما أمي فقد كانت تنظر إليّ بحيرة، بينما شقيقي كان لا يزال يغط في نوم عميق.

قلت:

ـ لا بأس بي، فقد كنت أحلم.

عاد أبي وجلس فوق الكيس الأسمنتي، رفعت يدي اليسرى فكانت الساعة الثانية والنصف.

كنت أشعر بآلام في رأسي، وأحس أن جسمي قد تقطع إربًا.. إربًا من شدة الإرهاق، لم أستطع نسيان فم القرش الفاغر. سمعت صوتًا؛ فقد نادى أحدهم على والدي، فأسرع الخطى وصعد على الدرج وعاد بعد لحظات.. وأخبرنا بأنه يجب علينا التحرك. ربت أمي على كتف شقيقي، ففتح عينيه، ونهض دون أن يتكلم. خرجنا وسط ظلام دامس؛ فلم يكن بالإمكان رؤية القمر.

اتجهنا إلى الشارع؛ حيث كانت تنتظرنا سيارة صغيرة، وقد نصب أعلاها لوحة سيارة أجرة. جلس والدي في المقعد الأمامي مع السائق، وصعدنا نحن إلى المقعد الخلفي.

جُلت بنظري فكنا على مرتفع ورأيت الآلاف من الأضواء البيضاء والصفراء، وقد غطت المكان، وأدركت أننا على أطراف مدينة زاهدان. تحركت السيارة، وانحرفت إلى زقاق ثم صعدت إلى الشارع العام سارت إلى الأمام وتوقفت بجانب ممر المشاة.

فتح السائق باب السيارة على عجالة وطلب منا النزول فامتثلنا لأمره وجلسنا وسط الأشجار الكثيفة الموجودة على مقربة من الشارع. كان الشارع مضاء بالمصابيح الموجودة على طرفيه، وضوءها كان يصل إلى أغصان الأشجار التي كنا نجلس تحتها. نظرت إلى السائق فقد كان يهم

بإخراج الهواء من الإطار الأمامي، وبعدها جلس على مقدمة السيارة (البونيت).

المكان كان هادئًا جدًّا إلا من أصوات بعض السيارات التي تمر على الشارع بين الفينة والأخرى. السائق كان ينظر إلى الساعة التي في يده كل لحظة. جاءت سيارة من نوع تويوتا وفوقها مصباح أحمر دوّار، وكُتب على بابها عبارة «قوات جمهورية إيران الإسلامية».

توقفت السيارة وأطل أحد الجنود برأسه من النافذة، فأشار السائق بأصبعه إلى الإطار الفارغ في السيارة. ثم أشار إلى الهاتف، فهمت منها أنه ينتظر حتى يتم إحضار إطار بديل. تحركت سيارة الشرطة، وأشعل السائق السيجارة، وظل جالسًا على مقدمة السيارة.

وبعد فترة قرب الهاتف إلى أذنه وفهمت من حركة يده أنه كان غاضبًا. وبعد مرور ربع ساعة حضرت سيارة حافلة ركاب مرسيدس من نوع ٣٠٣ نادانا السائق ذهبنا إليه، وصعدنا إلى السيارة وكانت الكراسي الموجودة في آخر الحافلة خالية فتوجهنا إليها وجلسنا عليها.

تحركت الحافلة فكان يجلس على الجانبين الصغار والكبار، ويمكنك مشاهدة الضوء الخافت المنبعث من الأضواء الموجودة في سقف الحافلة. وتلاحظ هنا وهناك بعض الرؤوس التي تتمايل وقد تمت تغطيتها بالحجاب الأسود. كانت الحافلة يسودها الهدوء، نظرت إلى مقدمة الحافلة فرأيت خلف المقود شابًّا يافعًا في مقتبل العمر.

وبعد السير نحو ساعة من الزمن قام شاب وحمل معه سطلًا بلاستيكيًّا، وتقدم إلى الأمام.. مسك طفلًا صغيرًا من خديه وتبسم له وأخرج علبة عصير من السطل وسلمها له.

ناول الشاب علب المياه لبعض الأشخاص ثم توجه إلى الكرسي الخلفي، ووضع السطل على الأرض ثم نظر يمينًا وشمالًا وأخرج عدد ثلاث بطاقات وقال بصوت خافت:

ـ أمامنا نقطة تفتيش، وسيصعد أفراد الشرطة إلى الحافلة ولن يأتي إلى الكرسي الخلفي، وما عليكم سوى أن ترفعوا له هذه البطاقات من بعيد.

مسك والدي إحدى البطاقات، ونكس رأسه، ثم عاد.. ونظر إلى الشاب فوضع الشاب إصبعه على فمه وقال بصوت مهموس: لا تقلقوا؛ فنحن رتبنا الأمر حيث دفعنا لهم مبالغ.

ضحك الشاب فجأة وقال بصوت عالٍ:

ـ تريدون العصير؟

وقام بوضع علبة العصير على فخذ شقيقي وعاد وجلس بالقرب من السائق. دفع لي والدي البطاقة وقد كتب عليها شناسنامة (الهوية) وتحته صورة لرجل كثّ الشارب فأشرت إلى والدي فابتسم وأراني بطاقته فلم تكن بها أية صورة. نظرت إلى أمي فقد كانت تحرك البطاقة بين يديها ويظهر في الصورة شخص كبير السن وعلى رأسه عمامة بيضاء.

وصلنا إلى سوق صغير فتوقفت الحافلة والمحلات كانت مغلقة إلا أنه يمكن مشاهدة جمع من الناس من وراء نوافذ المطعم وكانوا يأكلون بواسطة الملاعق والشوكة. صعد إلى السيارة جندي، وطلب من الجميع إبراز هوياتهم، فارتفعت الأيدي، نظرت إلى أمي؛ فقد كانت ترفع البطاقة معكوسة. ترك الجندي الكرسي الأول وربت على كتف رجل عجوز في الصف الثاني.

فكلمته المرأة الجالسة بجانب الرجل العجوز بشيء.

تقدم الجندي، فانتفض قلبي، ونظرت إلى أمي فكانت قد وضعت البطاقة على فخذها، ورأيت والدي وقد برزت عيناه من الخوف. ومال الجندي على عدد من الناس للتأكد من هوياتهم ثم اعتذر منهم وربت على الشنط الموجودة على الرفوف في أعلى الحافلة، وطلب من أحد الشباب الوقوف وقام بتفتيشه. ثم وقف أمامنا وأشار إلى والدي طالبًا منه النزول فنزل معه من الباب الخلفي. نهضت أمي فمسكتها من كتفها فقعدت في مكانها.

قال أخي بصوت خائف:

ـ إلى أين يأخذون والدي.

سمعت صوتًا أنثويًّا خافتًا:

ـ وسيم جدًّا.

لويت عنقي. وكانت تجلس أمامي امرأة عجوز ترتدي نظارات تبدو من خلالها عيونٌ كبيرة، وكانت تنظر إلى أخي الذي بجانبي. ثم التفتت إليّ وقالت بصوت خفيف:

ـ هل أنتم أفغان؟

كنت صامتة. ضحكت المرأة:

ـ فهمت من خلال لهجة الطفل بأنكم لستم إيرانيين، ولا أظن بأنكم باكستانيّون؛ لأنهم يعرفون من خلال بشرتهم السوداء.

ردت عليها أمي:

ـ نعم نحن أفغان.

أخرجت المرأة علبة البسكويت ومدّتها إلى أخي، فنظر أخي إلى أمي فرفعت حاجبها فأخذ منها البسكويت وقلت لها:

– هل سيؤذون والدي؟

ـ ماذا تقولين؟

تنفست أمي نفسًا طويلًا:

ـ لا شيء، فهي قلقة على والدها.

ضحكت المرأة العجوز، حتى بدت نواجذها التي كانت من الذهب، وقالت بصوت هادئ:

ـ لا تخافوا، فشرطة الطرقات السريعة كلاب يرضون بحفنة من التومان.

كلامها كان صحيحًا. عاد أبي، وجلس في مقعده وفهمنا من خلال تعابير وجهه أنه كان غاضبًا، سألته أمي عن سبب الغضب، فردّ عليها بأنهم أخذوا منه مائة دولار. تحركت الحافلة وبعد مرور فترة كافية قالت المرأة العجوز:

ـ حوّلوها إلى تومان!

فقد فهمت المرأة معنى كلمة (دولار).

نظر والدي إلى علبة البسكويت الموجودة في يد أخي.

قالت أمي:

ـ سلمته له المرأة.

وكان خارج الحافلة ظلام، لكن كان بالإمكان مشاهدة بعض اللوحات الإرشادية من خلال الأضواء الصادرة من أنوار الحافلة، ولم يكن بالإمكان رؤية أي شيء آخر. أحسست بالثقل في عيني وبدأت أضواء الحافلة تخفت شيئًا فشيئًا في عيني ورحت بعدها في نوم عميق.

عطست مريم، وازداد عطاسها، ثم قالت بصوت ضعيف:

ـ فتحت عيني على الهرج، وقد اصطفت الحافلات على جانبي الطريق، ويمر الناس ذهابًا وإيابًا، والتفتُّ إلى أمي فقد كانت مازالت تتحدث مع المرأة العجوز. الحافلة كانت خالية، وعلى بعد مقعدين كان هناك رجل عجوز يقرأ كتابًا. انتبهت إلى والدي، فقد كان يقف مع السائق بجانب كشك لبيع المطبوعات.

حضر أخي، وقد برز من خلال شفتيه الحمراوين عود البقدونس فقد كان يتناول الهمبرغر.

نهضت من مكاني ونظرت إلى أمي لكنها لم تتكلم. نزلت من الباب الخلفي للحافلة، وذهبت ووقفت أمام المحل، اشتهيت العلكة لكن لم يكن لدي عملة إيرانية.

سمعت صوت والدي:

ـ ماذا تريدين؟

التفت إليه، فقد كان يمسك بيديه كيسًا بلاستيكيًّا شفافًا، وفيها علب البيبسي والهمبرغر.

سألته:

ـ من أين تحصلت على التومان؟

أشار إلى اليسار فقد كان هناك محل للصرافة، وقد التصقت بزجاجه الأمامي أنواع من العملات المختلفة. اشتريت قرصين من العلكة، ذهبت وجلست تحت أشعة الشمس على الكرسي الخشبي، نظرت أمامي فرأيت وراء حديقة صغيرة شارعًا إسمنتيًّا صغيرًا، يسير عليه مجموعات من الناس لكنني لم أرَ أية مخلفات عليه. قال والدي بفم ممتلئ:

ـ بقيت مسافة ألف وثلاثون كيلو مترًا؛ للوصول إلى طهران سنبقى في الحافلة حتى المغرب.

نظرت إلى الساعة الموجودة على البناية المقابلة فكانت السابعة والنصف صباحًا.

سألت:

ـ ما اسم هذا المكان؟

ـ محطة الحافلات بمدينة كرمان.

تدحرجت كرة صغيرة، واستقرت وسط الزهور، جرى وراءها طفل صغير وتوقف عند الزهور، قمت ومددت يدي إلى تحت الزهور وأخرجت الكرة من بين النباتات الشوكية. بسط الطفل يديه السمينتين، وأخذ الكرة، وجرى نحو الحافلة. عاينت الزهور فقد كانت في مراحلها الأخيرة؛ إذ تغير لونها بفعل الخريف. وعدت وقعدت فوق الكرسي الطويل.

قال أبي:

ـ إنها تشكرك على صنيعك.

نظرت إلى الأمام فرأيت سيدة بجانب الطفل تهز يديها لي. ومرت على الشارع فتاة ممشوقة القد، وقد برزت من طرف ردائها خصلات من شعرها الذهبي.

قلت:

ـ ألن يقول لها الملالي شيئًا؟

لم أسمع جوابًا. نظرت إلى والدي، فقد اصْفر لونه، ويحدق في شرطِيّين قادمين في اتجاهنا.

قلت له سريعًا:

ـ لا تنظر إليهما.

نكس رأسه. حضر الشرطيان، أحدهما كان يحمل جهازًا لاسلكيًا والثاني قد ربط المسدس في حزامه.

قال أحدهما:

ـ سيدي توجد خلفك سلة المهملات.

تبسم والدي، وأخذ علبة البيبسي المرمية تحت رجليه ورماها في سلة حمراء. رن الجهاز، وخرج منه صوت يبدو عليه القلق:

ـ لقد فقدنا أثر رجلين أفغانيين، أحدهما له لحية طويلة، وذات بشرة بيضاء ويبدو أنه في الثلاثين من عمره، والآخر على وجهه أثر جرح قديم، كلاهما اتجها نحو البوابة الشمالية للمحطة. جرى الشرطيان.

قال أبي:

ـ جلوسنا في الحافلة أحسن لنا.

صعدنا إلى الحافلة، شقيقي كان يجلس بجانب أمي، والمرأة العجوز كانت تقرأ كتابًا. التفتُّ إلى أبي، إذ به ينظر إلى سيارة الشرطة الواقفة.

قلت:

ـ لم يتعرفوا علينا.

لم يجبني واكتفى بابتسامة عريضة فقط.

وبعد مرور حوالي ربع ساعة، عاد ركاب الحافلة الذين كانوا قد نزلوا منها لتناول فطور الصباح، انحنيت على المرأة العجوز، ونظرت إلى يدها فكانت الساعة الثامنة إلا الربع.

تحركت الحافلة، وجاوزت المدن والصحارى، وتناولنا طعام الغداء في مدينة أصفهان في الساعة الواحدة ظهرًا، وتم إنزالنا من الحافلة بعد المغرب على الشارع العام.

كان المكان عبارة عن محطة للتزود بالوقود، وقد تزينت بأنواع وألوان مختلفة من المصابيح الكهربائية. حضر إلينا شخص عجوز نحيف كثيف الشعر، اقترب منا مبتسماً، وقام بحمل الشنطة دون أن يتكلم.

وبدأنا السير خلفه، حتى دخلنا إلى منزل خلف محطة الوقود، وجلسنا في فنائه على العشب، نظرت من حولي؛ فرأيت وسط الأشجار الصفراء غرفة قد اصطبغت جدرانها باللون الأبيض.

دخل العجوز تلك الغرفة.

جرى شقيقي، التفتُّ إليه فرأيت خلف شعره الأسود الكثيف بط أبيض، ذهبت إليه، وكان ثلاث من البطات تسبحن في مياه صافية وسط بركة صغيرة. نادى علينا أبي، التفت إليه بهدوء، فرأيته يحمل كأسًا وقد رفعه إلينا.

فقلت لأخي:

ـ الشاي جاهز.

لم يلتفت إلي، وكان يلقى فتات البسكويت للبط. تركته على حاله، وجئت وقعدت بجانب أبي، ونظرت إلى أمي؛ فقد كانت تستمتع باحتساء الشاي. وضع العجوز صحنًا على الأرض، وكان به بعض قطع السكر (قند). ثم قال بصوت منكسر:

ـ هل تحتاجون شيئًا آخر؟

شكره أبي لكن العجوز ظل يبتسم واقفًا في مكانه ويلاحظ الحفر في وجنتيه. أدخل أبي يده في جيبه، ثم مد يده إلى العجوز ممسكًا بعملة ورقية. لكن العجوز لم يمد يده إليه لأخذها فأضاف إليه عملة أخرى إلا أن العجوز استمر في ابتسامته. أعجبني موقفه؛ حيث شعرت أنه ليس طماعًا لكنه قال فجأة:

ـ أريد الدولار.

أثار حفيظة أبي، قام بإبعاد يده عنه. جلس العجوز وقال بلهجة منكسرة:

ـ سيدي، لا تزعل، فهنا فقط يأتي أولئك الأفغان الذين ينوون الذهاب إلى أوروبا، ويدفعون لي بالدولار.

ضحك أبي، وضم عملة أخرى إلى العملات، وقربها من العجوز، فمد يده إليه، إلا أني لم أرَ ابتسامته الأولى. كنت أستمتع بالحديقة، فالهواء كان باردًا، فكلما شممت رائحة الطين كانت تتراءى لي صورة وحيد.

العجوز كان يقف أمام الغرفة، ويقوم برش الأرض بواسطة أنبوب المياه. وبعد مرور نصف ساعة حضر إلينا العجوز حاملًا بيده الجوال، وقال بنبرة غاضبة: تعالوا ورائي.

حمل أبي الحقيبة، وصعدنا إلى سيارة الأجرة التي كانت تقف أمام محطة الوقود. تحركت السيارة، مررنا بلوحة إرشادية مكتوب عليها (طهران ١٠ كم).

ثم انحرفت السيارة يمينًا قبل قطع تلك المسافة، وكان الطريق غير معبّد ويصادف أحيانًا أن نشاهد بعض الأشجار العارية من الورق بواسطة أنوار السيارة. وبعد أن قطعت السيارة حوالي ربع ساعة صعدنا فوق تل مرتفع وتحته آلاف من الأنوار مضاءة. التفت أبي إلى السائق وقال بصوت هادئ:

ـ هل هذه طهران؟

لم نسمع الجواب. صعدنا إلى الشارع المعبد وسارت السيارة وسط المئات من السيارات الأخرى، ثم توقفت، ونظرت إلى أمامي؛ فقد كانت الإشارة المرورية خضراء.

جُلت بنظري من حولي في محلات التسوق ينبعث من واجهاتها الزجاجية ضوء أبيض، وحركة دؤوبة للكبار والصغار على الرصيف بجانب الشارع. كان يبدو على الجميع أمارات النظافة، وفهمت من

الأردية الشفافة والبنطلونات الضيقة التي كانت ترتديها الفتيات أن الملالي في إيران قد منحوا الحرية لهن. انتبهت إلى مرآة السيارة، وشاهدت العيون الملتهبة للسائق ويمعن النظر في أمي. تحركت سيارة الأجرة فاطمأننت فقد غطت المرآة بشعر رأس السائق.

المدينة كانت كبيرة والشوارع نظيفة، وما زالت الزهور الموجودة في المزهريات الموضوعة على جانبي الطريق خضرة، وكنا نمر ببعض البنايات الشاهقة، والشوارع الفرعية كانت معبدة فكل شيء يبدو عليه حسن التنظيم.

واصلنا السير، قلّت البنايات الشاهقة، وظهرت الأراضي الزراعية أمامنا، ومع ذلك فقد كنا نمرّ ببعض المنازل الجميلة. انحرفت السيارة من الشارع العام ومرت بجانب جدار قصير، تقدمنا قليلًا ثم توقفت السيارة أمام بوابة كبيرة وبجانبها لوحة ضخمة عليها صور الأبقار البنية.

فتحت الباب، فتحركت السيارة، ازداد معه رائحة الروث. توقفت السيارة، نزلنا منها، كان هناك طريق ضيق وسط الأشجار تؤدي إلى الأعلى. تقدمنا إلى الأمام، دخل السائق عبر باب صغير، كان المنزل عبارة عن طابقين، ويخرج من إحدى الغرف صوت الضحك.

قمت بإيقاف حديث مريم، وتناولت علبة التمر بعد أن ملأت الكوب بالشاي، وعدت للجلوس أمام شاشة الكمبيوتر. واصلت مريم حديثها قائلة:

ـ قفز شقيقي مباشرة فوق السرير، وأنا قمت بفتح الباب الثاني في الغرفة، ومددت يدي إلى أنبوب المياه فسكت صوت خرير المياه المتساقطة في السطل الأحمر. وقفت أمام المرآة، فوجهي كان نظيفًا.

خرجت من الحمام، وأمي كانت تجلس حاسرة الرأس، وأما أبي فكان قد أخرج بطارية جهاز التحكم (ريموت كنترول) الخاص بالتلفزيون. ذهبت ووضعت رأسي على فخذ أمي. جُلت بنظري في الغرفة فقد كانت غرفة واسعة حليبية اللون، وقد وضعت فيها ثلاثة أسِرَّة قديمة فوق سجاد متهالك. سمعت صوت أمي:

- لا تشربها.

التفتُّ إلى أخي فرأيته قد رفع إناء الماء الموضوعَ على طاولة صغيرة. التقط أبي الإناء وقرَّبه من أنفه ثم توقف وقرَّبه من المصباح وخرج من الغرفة. ذهبت إلى التلفزيون، ضغطت على زر التشغيل، وقمت بتغير القنوات يدويًّا، وكان أغلبها يتحدث فيها رجال الدين. اقتربت من النافذة، فتحت إحدى طرفيها، شممت رائحة الحشيش، ونظرت إلى الأسفل؛ فرأيت شخصين قاعدين على كرسيين بلاستيكيين. أعدت إغلاق النافذة، وذهبت إلى النافذة الأخرى، وقمت برفع جزء من الستار فرأيت من بعيد آلاف الأنوار المضاءة. سمعت صوت الباب، ودخل أبي الحمام. نظرت إلى أمي وقد استلقت على السرير. رحت إليها وألصقت رأسي بفخذها، فمررت أصابعها في شعر رأسي.

كان الصمت مطبقًا، وأحيانًا كان يسمع أصوات الضحك من الغرفة المجاورة. تم طرق الباب، قام إليه أخي. دخلت الغرفة فتاة نحيفة تبلغ

من العمر عشر أو إحدى عشرة سنة، وكان معها صينية كبيرة، مع أصوات اهتزاز الأكواب. نهضت إليها وتناولت الصينية منها. خرجت الفتاة دون أي حديث. اقتربت من الطاولة ورفعت غطاء الإناءين، وكان فيها الزبادي (الروب).

سمعت صوت أبي يقول:

ـ ألم تحضر الماء؟

نظر إلى الزبادي فقال محفزًا لنا:

– هيا، اغسلوا أيديكم.

دخلت أمي إلى الحمام وظل شقيقي جالسًا في مكانه، وقال: ليست لدي الرغبة في تناول أي شيء.

وبعد تناول الطعام سكبت الشاي في الأكواب، ووجهت جهاز التحكم عن بعد (ريموت كنترول) إلى التلفزيون؛ لكنه لم يكن يعمل. أمي كانت تبحث عن اتجاه القبلة ولم يكن أحد منا يعرفها.

وكنا نشعر بالتعب والإرهاق، نام أخي إلى جانب أمي على السرير بينما نمت أنا وأبي على سريرين منفصلين.

كان الصمت مطبقًا، وكنت أسمع أصوات تساقط قطرات الماء في السطل، وبعدها كنت قد ذهبت في نوم عميق.

اهتزت أكتافي فجأة، نظرت بهدوء فكانت أمي تلومني على كسلي في أداء الصلاة. مسحت عيوني، وقد اصفر الطرف العلوي من الستار بفعل أشعة الشمس، اقتربت من النافذة قمت بإزاحة طرف الستار، وكان يبدو

لون السماء فوق البنايات أصفرَ. فتحت باب الحمام وتوضأت، وأثناء أداء الصلاة كنت أسمع شخير والدي.

الشمس كانت قد طلعت، طُرق الباب وكانت نفس فتاة الأمس، تذكرت عدم إحضارها الماء بالأمس، فأثارت غضبي فلم أقم لمساعدتها في حمل الصينية.

وأمي كذلك لم تساعدها، فقالت الفتاة بنبرة خائفة:

ـ لقد كنت نسيت إحضار الماء.

ضحك أبي:

ـ لا بأس.

فردت الفتاة بنفس النبرة الخائفة:

ـ أرجوكم لا تخبروا/ علي رضا.

ازداد ضحك أبي:

ـ من هو علي رضا؟.

سكتت. لهجتها لم تكن تشبه اللهجة الإيرانية.

قلت لها:

ـ من أين أنت؟

لمحت إلي بعينيها الكبيرتين، وخرجت دون أي كلام. وأثناء تناولنا للفطور حدثت ضجة، فاتجهنا كلنا إلى النافذة. كان مجموعة من الناس يتمشون يرتدون القمصان والسراويل.

قال أبي:

ـ إذًا لسنا وحدنا هنا.

عاد أبي وأمي وأخي إلى تناول الفطور، وبقيت واقفة عند الشباك، وشد انتباهي شاب يلبس البنطلون وتبدو عليه النظافة وبيده كابل كهربائي.

وتمعنت في الرجال الآخرين فبعضهم كانوا يتمشون والآخرون كانوا يجلسون مسندين ظهورهم إلى الجدار رثوا الثياب مغبرين ويبدو عليهم التعب.

سمعت صوت أبي:

ـ الشاي سيبرد.

عدت إليهم.

قالت أمي:

ـ إلى متى سنمكث هنا.

نظر إليها أبي وقال:

ـ لا أدري.

أخذت أمي نفسًا عميقًا، وحملت الكوب معها وجلست فوق السرير. أخذت الريموت كنترول، وأخرجت البطاريات منه، ووضعتها تحت أشعة الشمس عند النافذة. نظرت إلى فناء البيت فلم أر أحدًا.

ذهبت إلى الشباك الثاني، وكان بالأسفل حقول زراعية وفيه مجموعة من نبات عباد الشمس الجافة، وبعد الحقول تُشاهد صالتان وأمامهما عدد من أحجار الرخام ناصعي البياض، بدت لي مصنعًا لصناعة الرخام، نظرت بعيدًا؛ فرأيت دخانًا قد غطى البنايات المرتفعة.

سمعت صوت أبي الفَرِح:

ـ الحمام فيه مياه ساخنة.

التفتُّ إليه بهدوء، وجهه كان مبللًا.

فرحنا جميعًا، فقد كنا قد اغتسلنا لآخر مرة في كابول. وصلني الدور في الساعة العاشرة، المياه كانت مالحة، لكن لا بأس بها، وبعد خروجي من الحمام رأيت والدي قد أمسك المقص لتشذيب لحيته. أمضينا اليوم بكامله في الغرفة، ولم نر أحدًا غير الفتاة الصغيرة، وهي أيضًا كانت تأتي لإحضار الطعام ثم تخرج من غير أي كلام.

وفي اليوم التالي كان أخي قد تضايق من الوضع، ويقول بأنه لا يطيق الجلوس في الغرفة، جلست معه حوالي ساعة أحدثه عن الحياة التي تنتظرنا في لندن، وأن المستقبل الذي نأمله يستحق أن نتحمل من أجله هذا التعب. وفي صباح اليوم الثالث كنا نشعر بالضيق، نزل أبي إلى فناء المنزل. وعندما رجع، كان غاضبًا وقال بأنه يسمح لنا فقط بالتجول في زريبة الأبقار. خرجنا في الساعة الحادية عشر صباحًا، والتفتُّ خلفي فرأيت أن الطابق الأرضي قد بني على شكل سجن فالنوافذ كانت قد تم تسويرها بحواجز حديدية، والرجال الذين كانوا يقفون خلفها قد صوَّبوا نظراتهم إلينا.

خرجنا من المبنى ومشينا طريقًا وسط الأشجار، وكلما تقدمنا إلى الأمام تزيد معه رائحة الروث. وصلنا إلى ساحة مفتوحة، ورأيت شخصين يقفان عند المدخل الرئيسي، وعلى اليسار منه صالة طويلة.

سمعت خوار البقر، فجرى شقيقي تجاه الصوت، لما وصل فإذا بعشرات من الأبقار البنية قد صفت في صف طويل. تقدمنا إلى الأمام، التفتُّ إلى شقيقي فإذا به قد لفّ يديه حول عنق عجل صغير أسود اللون.

انتبهت إلى أرضية الصالون فإذا بها قد غطت برخام أبيض نظيف ومع ذلك كانت رائحة الروث تنبعث من المكان.

سمعت أمي تقول:

ـ حتى أبقارهم فيها راحة.

التفت إلى الأبقار، فإذا بالمعالف البلاستيكية الصفراء، وقد وضعت فيها أوراق الذرة المقطعة.

جاء رجل طويل يلبس معطفًا أبيضَ، وقام بتلبيس الأنابيب لضروع عدد من الأبقار، ومد يده إلى الجهاز وضغط على الزر، فانساب حليب أبيض في الأنابيب الشفافة. وحضر أشخاص آخرون وبدؤوا بمسح ظهور الأبقار بواسطة الفرشاة.

ونبهنا والدنا بضرورة العودة، إلا أن شقيقي كان مشغولًا بالعجل، ولم يكن يريد الابتعاد عنه. قام أبي بتوصيلي أنا وأمي إلى باب الصالة، ثم رجع إلى العزبة. فتحت الباب فإذا بالفتاة الصغيرة قد أمسكت بالمكنسة

وتقوم بتنظيف الغرفة. جلست أمي على السرير، وتنظر إلى الشنطة، ثم دخلت إلى الحمام. ونظرت إلى البطاريات الموجودة في النافذة، وقد أطل عليها الظل، أخذتها، وصوبت جهاز التحكم تجاه التليفزيون؛ لكنه لم يعمل. التفتُّ إلى الفتاة:

ـ ما اسمك؟

نظرت إليَّ، وقالت بصوت مكسور.

ـ زيبا.

قلت:

ـ ألا توجد بطاريات جديدة؟.

ـ سأكلم علي رضا.

ثم صمتت.

قلت:

– من أين أنت؟

ـ من أفغانستان.

تعجبت:

ـ إذًا ماذا تفعلين هنا؟

بدأت الدموع تتجمع في عيني الفتاة. فمددت إليها العلكة، وقد احمرت وجنتاها.

قلت لها بلطف:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

لم تجبني.

أمسكتها من يدها، وجلست معها فوق السرير، ونكست رأسها، ثم نظرت إلى المكنسة وهمست بهدوء:

ـ لم أنته من تنظيف الغرفة.

قلت لها:

ـ لا بأس.

ـ سيغضب مني السيد/ علي رضا؛ حيث يقول: اهتمي بتنظيف غرفة أصحاب الدولار.

تملكني الضحك:

ـ غرفة أصحاب الدولارات؟

ـ أمعنت النظر فيَّ، وبدا في عينيها الخوف.

قلت:

ـ لا تخافي.

نكست رأسها. يطلقون على هذه الغرفة الدولارية، ويجب علينا الاهتمام بها، حيث يقطنها– فقط –أولئك الذين يرغبون في الذهاب إلى أوروبا.

سمعت صوت أمي حيث كانت تطلب الملابس المتسخة. قمت، وفتحت باب الحمام فإذا بمغسلة الأيدي قد امتلأت بالغثاء. عدت إلى السرير. وقلت:

– طيب يا زيبا. هل معك أحد من أقاربك؟

تنفست نفسًا طويلًا ثم قالت: كلا.

أخذت الفتاة المكنسة، فمسكتها من عضدها، وأجلستها في مكانها.

عبست بوجهها وقالت: علي رضا سيضربني.

قلت: لن يقول لك شيئًا.

أجهشت بالبكاء وقالت: لا. سيفعل، فبالأمس قد قام بنطف ضفائري.

مدّت يدها إلى ردائها وأزاحتها عن رأسها، وأرتني أذنها الذي كان ينزف.

وقالت بصوت مخنوق: انظري فقد عضني هذا الصباح.

ارتعش قلبي بكت الفتاة فجأة:

ـ لأني لم أكن قد قمت بتنظيف الغرفة الدولارية.

تركت عضدها الذي كنت أمسك به، فقامت على الفور بأخذ المكنسة.

قلت لها: من هذا الكلب؟.

لم تجبني. استلقيت على السرير، ونظرت إلى السقف، وكنت أسمع شهيقها بالتضامن مع صوت المكنسة.

انتهى الجزء الأول من حديث مريم، وكان قد بقي الجزء الثاني، لكن الوقت كان متأخرًا فقمت بإطفاء الحاسوب، وغطيت نفسي بلحافين.

***

الفصل السادس

استيقظت على ضجة وفتحت عيني ومددت يدي إلى الستار؛ فكان الضوء ساطعًا، ورأيت جاري يقوم بتسويد سطح منزله بإزالة الثلج منه. فقمت بأخذ الماء الساخن من على المدفأة للوضوء، وقمت بفتح باب الصالة بعد عشر دقائق فتدحرجت كرات الثلج البيضاء إلى الفرش الأحمر. خطوت خطوة إلى الأمام فغاصت رجلي في الثلج حتى الركبة، والبرد كان قارسًا هذا الشتاء، وقد سبق أن تساقطت الثلوج لكن لم تكن بحجم الثلوج هذه المرة.

سمعت صوت جاري:

ـ هذه المرة أنت مجبر على الصعود إلى السطح.

ناديت عليه:

ـ أطراف المساح حادة سيؤدي إلى إزالة طبقة القار من على السطح.

قال:

ـ كانت الثلوج السابقة جافة لم تكن بحاجة إلى الإزالة لكن هذه المرة الثلوج مشبعة فسيثقل على السطح.

كنت مضطرًّا للصعود فصعدت على درج خشبي، ونظرت حولي فرأيت على كل سقف منزلٍ يقف شخص أو شخصان.

كنت أحتاط في إمرار المسّاحة عند إزالة الثلج ومع ذلك فقد أخذت معه بعض أوراق القصدير والإسفلت المصبوب على السطح.

رن الهاتف وكان على الطرف الآخر سائق الباص يخبرني بأن الشارع قد أصبح كتلة صخرية، وانقطعت سلسلة إطار السيارة، ولا يمكن صعود السيارة على تل باغ بالا، فوجدت ذريعة للغياب وبقيت حتى الظهر فوق السطح. ومع ذلك فقد بقي سطح غرفتين دون إزالة الثلج عنهما ناداني جاري الذي يسكن بجواري:

ـ هل تحتاج المساعدة؟

التفتُّ إليه فكان قد انتهى لتوّه من مسح إزالة الثلج من سطح منزله. كنت أحس بالتعب؛ فلم أكن قادرًا لأقول له (لا) فقام بوضع الدرج على الجدار وصعد إلى السطح وانتهينا من إزالة الثلوج عند أذان الظهر كنت أحس بأن جسمي قد تقطع وأكتافي كانت تؤلمني. نمت في المساء مبكرًا. وفي الصباح وأثناء الذهاب إلى المكتب تزحلقت السيارة عدة مرات؛ إلا أن سيرها البطيء أوصلنا إلى المكتب بسلام دون مشاكل.

كان اليوم يوم الخميس، وكان أمامي عمل اليوم والأمس فلم يكن بالإمكان رفع الرأس من الأوراق الموضوعة أمامي.

وفي نهاية الدوام قمت بفحص البريد الإليكتروني، وكانت قد وصلتني رسالة من لوسي، فتحتها وكانت قد كتبت:

ـ لقد قمت بإرسال حديث مريم إليك.

وصلت المنزل وكانت الكهرباء مقطوعة.

وفي الصباح قمت بشق ممر وسط الثلوج المتساقطة، فالمسافة إلى الباب الرئيسي لا تتعدى عشر خطوات لكنها أخذت مني حوالي ساعتين من

العمل. وعند رجوعي إلى البيت كانت الثلوج على جانبي الممر تصل حتى السرة، أعددت الشاي أولًا، ثم جلست إلى الكمبيوتر، وشغَّلت الجزء الثاني من حديث مريم وكانت مما قالته:

ـ لم تخرج زيبا من ذهني فقد أحضرت الطعام مرتين لكنها لم تتفوه بشيء.

وفي صباح اليوم التالي خرج أبي مع شقيقي، واستلقت أمي في السرير، وقالت بأنها لم تستطع النوم هذه الليلة بسبب الصداع في الرأس.

اقتربت من النافذة ونظرت إلى الأسفل، شاهدت زيبا، وقد أخذت قطعة قماش بيضاء تنظف بها دراجة نارية رياضية. أخذت إبريق الماء من على الطاولة، وعدت وطرقت النافذة فالتفتت إلي، فرفعت إليها الإبريق، فأشارت إلي بأنها آتية إلي. عدت وجلست فوق السرير، ونظرت إلى أمي فكانت غارقة في النوم. دخلت زيبا، وقد ازدادت حمرة وجهها، فاقتربت من الإبريق.

قلت:

ـ أريد أن أتحدث إليكِ.

التفتت إلي بعيون باكية، ناولت الإبريق، وخرجت من الغرفة.

وبعد فترة سمعت صوت الدراجة، فأطلت برأسي من النافذة، رأيت شخصًا متوسط العمر أسمر البشرة، بارز الصدر، ينظر في مرآة الدراجة لتعديل قميصه الأسود. تحركت الدراجة، تابعته حتى اختفى وسط الأشجار. عدت واستلقيت على السرير، وما إن أغمضت عيني حتى

فتح الباب التفتُّ فرأيت إبريق الماء موضوعًا على الطاولة. مسكت زيبا من عضدها، فجلست دون حراك.

قلت:

- هل هذا كان علي رضا؟

التفتت إلي، ففهمت من نظرات عيونها أن تخميني كان صحيحًا.

قلت:

- احكي لي القصة؟

نكست رأسها.

قلت:

ـ منذ متى وأنت تعيشين في هذا المكان؟

ـ منذ سنتين.

ـ هل لديك أسرة؟

أجهشت بالبكاء:

ـ لا.

ـ لماذا؟

سكتت لحظة، ثم قالت بصوت مخلوط بالبكاء:

ـ قبل سنتين وصلت رسالة إلى أبي من قبل عمي، وقد قرأها عليه إمام المسجد يطلب منه الحضور عنده إلى طهران، وكان قد كتب لأبي بأنني قد حصلت لك على وظيفة مشرف عمال في إحدى مصانع الطابوق، تستطيع أن تحصل خلال شهر على ما تحصله خلال سنة في الزراعة. وبعد بيع

متاعنا خرجنا من القرية متوجهين إلى طهران. فقد كفانا ما لدينا من مال حتى وصولنا إلى نيمروز، وهناك وجدنا مهربًا بواسطة صاحب المطعم، وكان يطلب من كل واحد منا مبلغ مليون تومانًا.

اتصل والدي بشقيقه فقال.. عليكم أن تصلوا إلى طهران، وأنا سأتكفل بمصاريف الرحلة. خرجنا من زاهدان سريعًا إلا أننا مكثنا في مدينة أصفهان لمدة أسبوعين، كانوا يطعموننا الخبز الجاف، وننام في مرآب للسيارات، وكان المهرب يقول لنا بأن طرق الوصول إلى طهران أصحبت صعبة فالشرطة تبحث عن الأفغان في كل مكان؛ حيث تم تبديل أفراد الشرطة من نقاط التفتيش الذين كنا نتعامل معهم.

وبعده نقلونا إلى مدينة صغيرة أخرى، وهناك رأيت علي رضا. وفي اليوم الثاني طلبوا منا الصعود إلى سيارة شحن وتجاوزنا عددًا من الأبقار ثم جلسنا خلفها على العلف مع عدد آخر من الأفغان. وبعد مسيرة يومين وصلنا إلى هذا المكان.

صمتت زيبا، فالتفت إليها فإذا بالدموع تنهمر على خديها الأحمرين.

قلت:

ـ ثم ماذا؟

حركت شفتاها وأضافت:

ـ اتصل والدي على شقيقه عدة مرات، إلا أنه كان مغلقا، فـ علي رضا كان يطلب مصاريف الرحلة ومنعنا من الخروج. مكثنا لمدة أسبوع في هذا المكان.

وبعده ألقى والدي بنفسه بين رجليه وطلب منه أن يأخذه إلى مصنع الطابوق إلا أن علي رضا كان يرفض بحجة أن هناك مئات من مصانع الطابوق فإلى أي واحدة منه يأخذه.

وبعد يومين من بكاء والدتي أثر فيه البكاء فركب خلفه والدي على الدراجة النارية، ولما رجع بعد العصر كانت شفتاه قد انشقت. لم يتناول الطعام، وكان يكلم نفسه طوال الليل ويسبّ شقيقه.

وفي اليوم التالي ذكّره أحد الإيرانيين بأنه قبل عدة أيام حضرت الشرطة إلى مصانع الطابوق وألقوا القبض على جميع الأفغان المتواجدين فيها فربما شقيقك من بينهم.

انقطع أمل والدي من العثور على شقيقه. وهذه المرة أخذت أمي بيد علي رضا وبدأت تترجاه إلا أن آخر كلامه كان بأنه يجب عليكم العمل في هذا المكان لمدة سنتين بدون أجر. فأفردوا لنا غرفة صغيرة في نهاية المزرعة وكانت غرفة وسخة إلا أن ما يميزها أنها كانت بعيدة عن أنظار بقية المسافرين.

والدي كان يعمل نهاره كاملًا في تنظيف روث الأبقار ولمّا يرجع في المساء تنبعث منه رائحة الروث. بينما أمي كانت تقوم بتجهيز الطعام للمسافرين.

كان والدي يقوم كل يوم برسم خط على جدار البيت ثم يقوم بحسابه ثم يقول بأنه ما زال أمامنا أيام كثيرة.

وفي يوم من الأيام حضر علي رضا إلى الغرفة وبدأ بالثناء على طريقة طبخها للأرز ثم ازداد تردده على الغرفة وخاصة في الأوقات التي يكون فيها والدي في المزرعة.

وفي ظهر أحد الأيام بينما كانت والدتي تعد الطعام؛ حضر وبدأ يحدق فيها. وفي اليوم التالي أحضر قميصًا وقدَّمه إلى والدتي إلا أنها امتنعت عن استلامه لكن علي رضا أصرّ. وفي المساء عندما رأى والدي القميص في زاوية الغرفة قام بضرب والدتي. لم تستطع النهوض من مكانها لمدة يومين. فكنت أقوم خلالها بإحضار الخبز الجاف للمسافرين أربع مرات في اليوم.

وفي اليوم الثالث قامت أمي مجبرة لإعداد الطعام وكنت أعتقد بأن عيونها تدمع بفعل تقشير البصل لكن الأمر لم يكن كذلك؛ بل كانت تبكي بالفعل.

وأما أبي فكان غاضبًا فلم يكن يكلم والدتي، وكان يجلس بصمت ويعد الخطوط على الجدار. قلت له يومًا من الأيام:

ـ علينا أن نهرب من هذا المكان.

تنفس نفسًا طويلًا وقال:

– هل تستطيعون القفز من على هذا الجدار.

فهمت منه أن والدي لا يستطيع أن يذهب إلى أي مكان من أجلنا. افتقدنا علي رضا عدة أيام، وحضر ظهر أحد الأيام ووضع يده على فخذ أمي، وقال: لا أحبذ لك التعب فتعالي معي أنت مع بنتك إلى منزلي.

وكانت أمي ترد عليه بقول واحد:

ـ أستحلفك بالله أن تخرج من الغرفة.

التفت إليّ علي رضا، وأمرني بأن أقوم بإحضار الماء من الثلاجة في الغرفة الموجودة بالطابق الثاني. صعدت إلى الغرفة، أخذت الماء، عندما مددت يدي إلى الباب لم أستطع فتحها؛ فقد تم إغلاقها من الداخل.

لم أفهم كم المدة التي مرت حتى سمعت صوت تحريك المفتاح في القفل وذهبت إلى الممر فرأيت علي رضا وعلى وجهه وعنقه آثار الخدوش الحمراء من فعل الأظافر فقال لي.. إن أخبرت أحدًا فسأقتل والدك.

لم أكن أفهم ماذا أفعل حتى أخبر أحدًا! وبماذا أخبره؟

نزل قبلي إلى الأسفل. دخلت على أمي وكانت ممدة على الأرض عارية من الملابس.

صرخت زيبا فجأة، فوضعتُ يدي على فمها فورًا والتفتّ إلى أمي فإذا هي ما زالت نائمة. قمت باحتضانها؛ فقد كانت تبكي بشدة ولم أتمالك نفسي؛ فبدأت أبكي معها.

مرت فترة كافية ثم قالت بصوت مخنوق:

ـ نهضت أمي، لبست ملابسها الممزقة خرجت من الغرفة ثم رجعت فاحتضنتني في حضنها واستمرت على ذلك لفترة طويلة، ثم قبلتني بقوة على جبيني، ثم جرت فجأة وخرجت حاسرة الرأس. أخذتُ رداءها وخرجت في إثرها ما إن سمعت صوتًا حتى ارتفع الغبار من الأرض نظرت إلى الأسفل؛ فقد كانت أمي ملقاة على الأرض وتسيل الدماء من فمها؛ إذ ألقت بنفسها من البناية.

وضعت يدي على فم زيبا، وكدت أن أصرخ فقلت بصوت مخنوق:

ـ كفاية. أرجوك لا تكملي.

التفتت إلي زيبا بعينيها فأزحت يدي عن فمها فقالت الفتاة:

ـ أنت التي كنت تطلبين القصة.

تملكني البكاء:

ـ جيد، أكملي.

فقالت الفتاة الصغيرة:

ـ ارتج المكان بالصراخ، وبدأ الأفغان الذين كانوا في الغرفة يهزون الأسياخ الحديدية محاولين إزاحتها بكل قوة يسبون الإيرانيين إلا أن الأسياخ كانت أقوى منهم جميعًا.

حضر عمال المزرعة وكان من بينهم والدي. اقترب من والدتي، رفع يدها ثم تركه فاصطدم بالأرض. ظل صامتًا لفترة طويلة، ممعنًا النظر إلى قميصها الممزق وصدرها، ثم رفع رأسها من التراب واحتضنه، ثم صرخ فجأة، واختلط صراخه مع بكاء الرجال الواقفين خلف الحاجز الحديدي. بكي والدي لفترة طويلة، ثم نظر إلي وقد احمرت عروق عينيه فقال لي بصوت مخنوق:

ـ كان علي رضا؟

هززت رأسي بأن نعم.

قام أبي وتناول الشيول المسند إلى الجدار وأسرع في الجري وخرج من فناء المنزل. سكتت زيبا.

قلت لها وأنا أجهش بالبكاء:

ـ وماذا بعد؟

نكست الفتاة رأسها:

ـ اقتربت من أمي، فقد كانت عيناها مفتوحتين وكأنها تنظر إلي ألقيت بنفسي على صدرها، ووضعت رأسي على عنقها، أحسست بالمرارة في فمي لم أفهم.. هل كان ذلك بسبب دموعي أم كان ذلك طعم الدم.

وضع أحدهم يده على كتفي فالتفتُّ إليه فإذا هو علي رضا وبدأ بتوجيه ضرباته بقبضة يده إلى صدري ثم رفعني من الأرض إلى الأعلى وألقاني على الأرض. اسودت الدنيا في وجهي لم أستطع أن افتح عيني، وضغطت عليها حتى فتحتها فرأيت عددًا من الأشخاص الأقوياء يقومون برفع كيس بلاستيكي أسود من الأرض، وقد خرج منها يد أمي الأبيض. لم أشاهد أي شيء آخر.

صمتت زيبا، وسمعت في الخارج صوت أبي:

ـ ألا تخرجين إلى الخارج؛ فالهواء منعش جدًّا.

التفتُّ إليه بهدوء، وكان يحدق في والدتي. قال:

ـ ماذا أصابها؟

أجبته:

ـ رأسها كان يؤلمها؛ لذا فهي نائمة.

ـ ألا ترغبين في الخروج؟

ـ لا، فلا أستطيع أن أترك أمي لوحدها.

خرج والدي مرة أخرى من الغرفة. نظرت إلى زيبا فقد احمرت عيناها، ظلت صامتة لبرهة من الوقت، ثم حركت شفتيها بعد ابتسامة مُرة وقالت وهي تجهش بالبكاء:

ـ لا تخافوا؛ فهؤلاء لن يتعرضوا للمسافرين الدولاريّين.

قطعت كلامها:

ـ هم؟

ـ نعم، فأنا أعرف كثيرًا من قصصهم، فهذا المكان يأتي إليه أشخاص مختلفون، وعلي رضا يعرف كثيرًا من الناس، ولديه غرفة خاصة وقد سبق أن أوصلت إليه الطعام، كلهم يتعاطون الأفيون، ورأيت معهم المسدسات بنفسي.

يُجلب إلى هنا نوعان من المسافرين- المسافرون ذوي الدولارات- وهذه الغرفة خصصت لهم، ويختلف طعامهم وشرابهم عن غيرهم من المسافرين. وأما النوع الآخر فلا يتمتعون بتلك المميزات وأطلق عليهم علي رضا اسم المسافرين التومانيين، وهؤلاء الأشخاص يأتون إلى إيران للعمل، ويتم حجزهم وراء الحواجز الحديدية حتى يأتي من يقوم بدفع عمولة التهريب، ويوجد من بينهم من مضى عليه أسابيع ولا يسمح لهم بالخروج أبدًا عدا عشر دقائق كل صباح لقضاء الحاجة والتجول. وبعدها يتم إغلاق الأبواب خلفهم ولا يفتح لهم الباب حتى لو ماتوا، ففي الأسبوع الماضي كنت أسمع استغاثة أحد المسافرين وكان شابًّا،

وكان يشتكي من آلام البطن لم يجد أحدًا يأتي لنجدته. وفي الصباح كان قد قضى نحبه.

سكتت زيبا لحظة فقلت لها:

ـ ماذا تفعلين أنت هنا؟.

ـ أقوم بإعداد الطعام.

نظرت إليها فرأيت في يدها بثرة مائية كبيرة وأضافت بصوتها المخنوق:

ـ وبعد موت أمي بثلاثة أيام أخذوني إلى أحد المنازل يقطنها أربعة من النساء إحداهن عجوز والثلاث الباقيات شابات كل واحدة منهن كان لها غرفة خاصة، وانتبهت في اليوم الثاني أنه دخل المنزل ثلاثة رجال فقامت العجوز باستلام المبالغ منهم ثم قامت بإرشاد كل واحد منهم إلى غرفة منفصلة.

صمتت زيبا التفت إليها؛ فقد كانت شفتاها ترتجفين.

قلت:

ـ ماذا بعد؟

بقيت هناك ثلاثة أيام، ثم جاء علي رضا وردني إلى نفس المكان فلم أرَ أحدًا ممن كنت قد تعرفت عليهم سابقًا، فقد كان يقف خلف القضبان الحديدية أشخاص آخرون، كما أنه تم تغيير عمال المزرعة. استفسرت عن علي رضا بخصوص والدي فقال بأنه أصيب بعض الشيء، وعندما يخرج من المستشفى بإمكانك الذهاب معه. أخذني إلى الغرفة الخلفية

فقد كان هناك شخص عجوز يقوم بإعداد الطعام فطلب مني علي رضا مساعدته.

في الليل كنت أنام وحدي، لم أستطع النظر إلى زاوية الغرفة؛ فقد كنت أرى شبح أمي عارية تقوم بتمزيق شعرها لذا كنت أقوم بترك مصباح الغرفة مضاءً حتى الصباح.

وبعد فترة تعودت على الوضع وعلي رضا كان يخبرني عن حال والدي ويقول بأنه يتماثل للشفاء يومًا بعد يوم.

مضت الأيام على هذا المنوال، ولم يحضر والدي، وكنت أسأل علي رضا عنه كل يوم. وفي يوم من الأيام أخبرني بأن والدك قد أُلقيَ القبض عليه من قبل الشرطة، ويمكن أن يكونوا قد أبعدوه إلى بلاده. لم أفقد الأمل، فقد كان يعرف المكان وأنه سيأتي إليّ لا محالة.

وفي ظهر أحد الأيام ذهبت إلى زريبة الأبقار وتزحلقت رجل أحد العمال لم يستطع النهوض فطلب مني إخراج السطل المملوء بالروث.

يقع مكان تجميع الروث في زاوية المزرعة يتم تجميع مخلفات الأسبوع كلها فيه. ويوم الجمعة تأتي سيارة وتقوم بتحميلها. وصلت إلى المكان رأيت فردة حذاء اشتبهت في أمرها فرفعتها ونظفتها بردائي فإذا هو يخص والدي.

جريت نحو الباب وبدأت أصرخ، وأشرت بفردة الحذاء إلى عين الحارس العجوز. كان متحيرًا ينظر يمينًا ويسارًا، امتلأت عيونه بالدمع، ولف يديه حولي وقربني إلى صدره، وقبلني على مفرق رأسي. كان يبكي لكن لم يتحدث عن والدي بشيء، ثم طلب مني الابتعاد عن المكان حتى

لا يعلم علي رضا بوجودي هنا. أتى علي رضا بعد يومين، وسألته عن أخبار والدي فأخبرني بأنه سيأتي قريبًا. مرت الأيام وكنت أقوم بإعداد الطعام لوحدي.

وفي يوم من الأيام حضر الحارس الشاب لأخذ وجبته، سألته عن والدي فردَّ علي بنبرة غاضبة قائلًا إنه لا يعلم شيئًا.

وفي مساء نفس اليوم فتحت باب غرفتي فإذا بنفس الحارس، وقد احمرت عيناه اتكأ على الجدار وجلس عند الباب وقام بوضع العلبة التي كانت بيده على الأرض، وقال لي بأنه يعلم عن أحوال والده.

سررت بالخبر وسألته عن معلوماته إلا أنه طلب أولًا قبلة. لم أرفض كون والداي قد سبق لهما أن قاما بتقبيلي كثيرًا، إلا أن قبلته كانت تختلف عن تلك القبلات، فقد ابتل فمي بلعابه وكانت رائحته كريهة أحسست بالتقيؤ فابتعدت عنه. سقط على الأرض في مكانه، لم أجرؤ على الدخول إلى الغرفة فسهرت الليل كله تحت نجوم السماء الصافية، وفي الصباح لما عدت إلى الغرفة لم أجده فيها، وجاءني في الساعة الثامنة صباحًا وكان خائفًا ويترجاني ألا أخبر علي رضا بشيء فالإنسان يمكن أن يهذي بأي شيء في حال السكر، فأبوك على قيد الحياة. لكنه لم يكن قد أخبرني بشيء عنه.

سكتت زيبا برهة ثم نظرت إليَّ وقالت بصوت مخنوق:

ـ هل يأتي والدي؟

مررت أصابعي حول عنقها الرقيق وقربتها من حضني وسمعت صوتها الخفيف تقول:

ـ ما زال علي رضا يطمئنني أن والدك سيرجع، فبالمساء استدعاني، وكان يؤكد على نفس الكلام، وكان يخرج من فمه نفس الرائحة التي كانت تخرج من فم ذلك الشاب، ثم بدأ يضحك وضغط على صدري عدة مرات ويسألني في كل مرة فيما إذا كنت أستمتع به.

كيف للمرء أن يستمتع بالقرص فمن الطبيعي أن يكون جوابي بـ (لا) لكنه كان يضحك ويقول بأنني لست خاسرًا في تهريبكم. فبعد سنة أو سنتين ستتمكنين من تعويضي بأضعاف ما خسرته من أجرة الطريق. وهنا انتهى حديث مريم.

مددت يدي إلى جيبي وأخرجت جهاز الذاكرة فما زال فيه الحديث الذي تم إرساله عبر بريد لوسي لكن جاءني اتصال من صديق لي يخبرني بأنني معزوم، ويطلب مني الخروج إلى الشارع العام فالسيارة جاهزة، حاولت أن أعتذر عن تلبية دعوته إلا أنه كان مصرًّا.

غيرت ملابسي وذهبت معه إلى بيته وكان قد حضر أحد زملاء دراستي من هولندا فلم يسمح لي بالذهاب؛ فاضطررت للمبيت هناك. وفي الصباح مررنا باثنين من الزملاء الآخرين ورجعت إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل.

كنت في عجلة من أمري لسماع بقية حديث مريم، وكانت قد قالت:

ـ كنت في هذا المكان كمن يجلس على جمر، كنت أكره المكان وعلي رضا؛ لذا لم أكن أطيق المكوث فيه، وكان والدي يصبرني لكن عقارب الساعة كانت قد توقفت بالنسبة لي، فعيون زيبا المنكسرة كانت تحرق قلبي، ولم يكن باستطاعتي مساعدتها.

وفي عصر أحد الأيام أخرجت عملة من فئة عشرة آلاف تومان من جيب أبي ومددتها إلى زيبا لكنها رفضت قائلة: لا أحتاجها فلا يوجد بالقرب منا أي محل يمكن أن أشتري منه.

وبعدها أصبت بالكحة فأحضر علي رضا بعض الحبوب إلا أن نفسي لم يطاوعني على تناولها وشقيقي أيضًا كان يعاني من ارتفاع الحرارة فكان يقضي جلَّ وقته في السرير.

وفي اليوم الحادي عشر خرجنا من المزرعة، وكانت أمي وأبي وشقيقي الصغير فرحين، يستمتعون بالمناظر من خلال زجاج السيارة يشكرون الله على أن أخرجهم من هذا السجن، إلا أني كنت أمعن النظر في رغيف الخبز المحروقة التي أهدتني إياها زيبا، لم أكن قادرة على نسيان عيون زيبا الممتلئة دمعًا خاصة عندما أتذكر جملتها الأخيرة حين قالت لي:

ـ هاك. فقد طبخت لك هذا الرغيف بنفسي حتى لا تجوعي.

سمعت صوت أمي المتحير:

ـ هل تبكين؟

أدرت بوجهي عنها. ضحك أبي وقال:

ـ يا مجنونة، عليك أن تفرحي فقد خرجنا من السجن.

لم أرد عليهم بشيء، ونظرت إلى الشارع المقابل فرأيت عددًا من الفتيات في عمر زيبا تمشين على الممشى كن جميلات يضحكن وعلى ظهر كل واحدة منهن حقيبتها المدرسية.

أنزلنا سائق سيارة الأجرة في أحد البساتين، فيه أنواع مختلفة من أشجار الفواكه، وقد كسا أوراق الشجر الصفراء أرضية البستان.

وبعد فترة قصيرة حضرت سيارة كبيرة لنقل المياه، وطلب منا السائق النزول إلى الصهريج فتحيرنا، غضب أبي ورفض النزول إلا أن السائق أصرّ على طلبه، وقدم مئات الأدلة لإقناعنا متذرعًا بصعوبة الطريق، وأنه قد قام بنقل مئات من الأسر بهذه الطريقة. لم يقتنع أبي فقال السائق إذًا عليّ أن أتصل بـالسيد علي رضا.

بدا قلبي يخفق، وأفهمت والدي بعدم رغبتي في العودة إلى ذلك المنزل. نزلنا إلى الصهريج كان جافًّا إلا أن رائحته كانت تشبه رائحة الأسماك. جلسنا على مرتبة ضخمة، جُلت بنظري في المكان، الظلام كان دامسًا، وظهر لي السماء كدائرة زرقاء من خلال الفتحة. أخبرنا السائق بأنه يجب عليكم عند توقف السيارة الرجوع إلى مؤخرة الصهريج مع المرتبة. تحركت السيارة وخلال لحظات فهمنا من انتهاء المطبات أننا دخلنا شارعًا معبّدًا.

لم نحس بأي مشكلة خلال الساعة الأولى من السير إلا أنه بعد مرور ساعة ونصف الساعة بدأنا نشعر بضيق التنفس فاجتمعنا عند الفتحة وفغرنا أفواهنا إلى الأعلى.

توقفت السيارة في أحد الأماكن فالتجأنا إلى المؤخرة آخذين معنا المرتبة، ولم تمض دقيقة حتى تحركت مرة أخرى.

وتوقفت مرة أخرى بعد نصف ساعة، طلب منا السائق النزول من السيارة لاستنشاق الهواء. وكانت قد توقفت بعيدة عن الشارع العام

وسط الأشجار الصفراء. أشار السائق بيده نحو اليسار إلى الماء المنحدر من الأعلى. ذهبت إلى الماء ومددت يدي إلى الماء؛ حيث كنت أشعر بدوخة في رأسي. بينما أبي استمر في تبادل الحديث مع السائق.

وبعد أن صعدنا إلى الصهريج أعلمنا والدنا بأننا سنمكث هنا حتى وصولنا إلى مهر آباد، وسألته عن مهر آباد فقال حسبما يقول السائق. فإن مهر آباد محافظة قريبة من الحدود التركية.

الرحلة كانت صعبة إلا أن اسم تركيا كان يبعث لدي بعض الاطمئنان.

وفي الطريق بدأ شقيقي بالاستفراغ فحمله أبي على كتفيه؛ ليتمكن من شم الهواء ثم شعر بالبرد فعاد وجلس على المرتبة. وصلنا إلى مهر آباد بعد غروب الشمس. دخلنا أحد المنازل ولم نكن قد ارتحنا من السفر بالصهريج حتى حضرت سيارة ذات دفع رباعي من نوع تويوتا وصعدنا إليها وأخذت تشق طريقها وسط الطرقات الوعرة، ونزلنا من السيارة في وقت متأخر من الليل.

كان الظلام سائدًا، نبح الكلب فألقيت بنفسي في حضن أمي. رأيت ضوءًا يقترب منا فإذا بامرأة عجوز ومعها سراج. لم نكن نفهم لغة بعضنا البعض فتتبعناها حتى سمعنا صرير الباب يفتح فدخلنا فإذا بنا في غرفة واسعة.

جلسنا فوق سجاد قديم وجلت بنظري على ضوء السراج رأيت تنّورًا. وفي الزاوية موقد نار (كانون) مبني من الطين وبقربه حزمة حطب. كلها كانت علامات تدل على أنها قروية العيش.

بسطت العجوز سفرة قديمة وأكلنا خبزًا جافًّا مع الجبنة. كنا نشعر بالتعب فما إن أحضرت العجوز الأغطية حتى وضع أبي رأسه على الشنطة وتغطى باللحاف، وأما نحن فمددنا دون مخدات على الفرش. وفي وقت متأخر من الليل سمعت صوت شقيقي يتأوّه، كنت حاقنة إلا أني تماسكت نفسي؛ حيث كنت أسمع تنفس الكلب بجانب الباب.

وفي الصباح الباكر رأيت أمي تقوم بتغيير ملابس شقيقي، التفتُّ إلى المكان الذي نام فيه فكان به بلل. خرجت من الغرفة، كان الطقس باردًا، ورأيت على تل مرتفع عددًا من المنازل، وقد استعمل في بنائها الحجر والخشب وتنبعث من مداخنها دخان أسود.

التفت فإذا بي أقف بجانب الكلب قفز من مكانه ونبح. جرت العجوز ناحيتي، وكنت قد جلست في مكاني فلم تكن رجلاي قادرة على الحركة. رفعت العجوز العصا تجاه الكلب ففرَّ وذهب، وقعد بجانب الجدار.

أمسكت العجوز من عضدي ومشينا وسط الأشجار حتى وصلنا إلى جدول ماء صافي. عندما وقفت تجاه القبلة كنت أرتجف من شدة البرد. وبعد تناول الفطور خرجت إلى الخارج، وكانت الشمس قد أشرقت، ورأيت علم تركيا يرفرف فوق إحدى التلال ناديت على أمي فحضرت وما إن رأت العلَم حتى أسرعت نحو الغرفة. وفي لحظات كنا جميعًا ننظر إلى العلم التركي.

قلبي كان ينتفض فتركيا كانت تبعد عنا حوالي كيلو متر. حضرت العجوز، وأفهمتنا بالإشارة بأن لا نخرج من الغرفة. امتثلنا لأمرها، وجلسنا فوق الفرش، ووضع شقيقي الشنطة على موضع البلل. سمعت

العجوز، وأفهمتنا بعدم الخروج على شكل مجموعات. وبعد لحظات خرجت برفقة أمي فرأيت العجوز تحلب العنزة وأمي جلست على جدول الماء لغسل ملابس شقيقي المتسخة.

أمضينا اليوم وبعد المغرب دخل الغرفة رجل طويل القامة، وقد تدلت شواربه البيضاء على شفتيه. اتجه نحو القدر، ورفع فخذ الدجاج منه ثم نفخ فيه وقرَّبه من فيه، وغطى شواربه البيضاء فخذ الدجاج ثم نظر إلى أمي وقال بفم مملوء:

ــ متاع جميل.

انتفض قلبي. قام إليه أبي، فوقفت أمامه. ضحك الرجل:

ـ اتركوه؛ فلا يستطيع فعل شيء.

عاد أبي وجلس. رمى الرجل العظمة في النار وقال بصوت مرتفع:

ـ يا عمة أحضري الشاي.

ثم أخرج من جيبه شيئًا لزجًا مثل القير على شكل قطع صغيرة وضحك:

ـ الحشيش له طعم جميل.

دخلت العجوز إلى الغرفة، ووضعت كوبًا مغسولًا ودلة صغيرة أمام الرجل. ارتشف الرجل من الكوب ونظر إلى والدي قائلًا:

ـ هل أنت ضابط عسكري؟

نظر إليه أبي بتعجب. أضاف الرجل:

ـ أعرف كثيرًا من الضباط الإيرانيين، عرفتك من وقفتك.

نظرت إلى أبي؛ فقد كان غاضبًا. وخلال لحظات امتلأت الغرفة برائحة الحشيش، ثم مدَّ السيجارة إلى أبي فلم يأخذه أبي فردّها إلى فيه أخذه العطاس وقال بلهجة ساخرة:

ـ أنت غيور جدًّا.

ثم ضحك فجأة:

ـ لكنك لن تستطيع فعل أي شيء هنا.

رأيت الغضب يتطاير من عيون أبي. أضاف الرجل:

ـ في السنة الماضية كانت لدي عائلة إيرانية ترغب في العبور من الحدود، وكانت من بينها فتاتان. وفي أثناء السير التصق كتفي بكتف إحداهما فأخبرت إخوانها فاجتمعوا علي وضربوني. وعندما كنا نعبر الحدود حملت نفس الفتاة في حضني، وقمت بتقبيلها وإخوانها كانوا ينظرون إليّ، ولم يكن باستطاعتهم فعل شيء.

ماذا كان بإمكانهم؟ ههه. لا شيء، فلم يكن بإمكانهم إبلاغ الشرطة أو صفعي وكل ما فعلوه أنهم كانوا يتوسلون إلي بأن لا ألمس شقيقتهم. الطينة كانت نفس الطينة والهواء نفس الهواء، هم كانوا نفس الأشخاص، وأنا كنت نفس الشخص؛ لكن الوطن كان قد تغير، قد انتزعت منهم الغيرة بعد مسافة كيلو متر. فعلى هذا الجانب من التل التصق كتفي بكتفها دون شعور فأوسعوني ضربًا؛ لكن على الجانب الآخر من التل كنت أقبلها أمامهم فلم يكونوا يملكون غير التوسل؟، ألم يكن الفرق شاسعًا؟

ـ كلام الرجل كان صحيحًا ففي السنة الماضية كنت راجعة إلى المنزل من الجامعة وفي الزقاق ضحك لي أحد الشباب فلم تعجبني ضحكته. وفي المساء أخبرت والدي بالأمر فذهب إلى منزل الشاب، وأخرج والده اللواء ومسح به الأرض. لكن هاهنا لا يستطيع أن يقول أي شيء لحشاش إيراني. انقطع حبل أفكاري على صوت الرجل:

ـ لا تخافوا.

ـ نحن لدينا نوعان من المسافرين فبعضهم يدفع قليلًا من المال، ونحن نقوم بتهريبهم عبر الحدود إلى الطرف الآخر ثم نتركهم لحال سبيلهم. لكن المسافرين أمثالكم يرتبط مصيرهم بحلقة المهربين جميعًا، وأنا إحدى هذه الحلقات، فشهريًّا أقوم بتهريب عشرة إلى خمسة عشر شخصًا عبر الحدود، ويدفعون لي مقابل كل مسافر مبلغ ألف دولار، لا يمكنني أن أفقد ثقتهم فيَّ فالمبلغ كبير جدًّا.

صمت ثم نظر إلى الساعة وقال:

ـ هيئوا أنفسكم عند الساعة الثانية عشر.

ثم نهض وخرج من الغرفة. وحضر في الساعة الحادية عشر وألقى بكيس بلاستيكي إلى أبي وقال:

– هذا سيحميكم من رؤية الحرس الموجودين في النقطة العسكرية.

وأخرج أبي من الكيس قميصين أسودين لبس أحدهما بينما قام شقيقي بلبس الآخر، وعندما خرجنا لم نكد نستطيع رؤية أبي وشقيقي وسط

الظلام. تقدمنا إلى الأمام ونبهنا الرجل أن نحتاط عند وضع الأقدام، وأن نحاول أن لا يتدحرج الحصى الصغيرة من تحت أقدامنا.

ثم أضاف.. لا تقلقوا؛ فهناك نقطة عسكرية واحدة وسنمر بعيدًا عنها فخلال خمسة عشر عامًا لم يطلقوا علينا الرصاص إلا مرة واحدة فقط. كنا نسير خلف الرجل على حافة التل، توقفنا في أحد الأماكن فلم نكن نسمع شيئًا سوى هزيز خفيف لطائرة هليوكوبتر.

تقدمنا إلى الأمام ودخلنا وادي جاف ثم صعدنا إلى الأعلى. تدحرجت صخرة استلقينا على بطوننا لم نحرك ساكنًا لفترة طويلة ثم نهضنا، وأخذ الرجل الشنطة من أبي وبدأنا نتقدم بحذر. وفجأة بدأ إطلاق الرصاص وبدأ شرارة النيران يتطاير من الأحجار، عدنا إلى الخلف مسرعين، واختبأنا وراء كتلة صخرية.

صرخت أمي:

ـ ولدي.

أطبق الرجل على فمها. خفق قلبي فأخي كان غير موجود نهض أبي، فجرّه الرجل من رجله، وقال له بصوت خافت:

- سيقتلوننا.

سمعنا أصوات الجنود يصرخون ورأيت الضوء مسلطًا على الناحية المقابلة رأيت شقيقي وسط الصخور فاتحًا عينيه كما رأيت بللًا خلف أذنه وعنقه. اتجه الضوء إلى ناحية أخرى انزلقت أمي إلى الأسفل ذهبت إليها فكانت تشخر.

عاد الصراخ نظرت إلى الأعلى؛ فكان الضوء مسلطًا على أبي وكان يجري باتجاه شقيقي، بدأ إطلاق الرصاص، فتطاير الشرر من أمامه فرجع ثانيًا. تقدم الرجل وأقام أمي وأسرع في النزول. سمعت أزيز الرصاص وهي تمر فوق رأسي أمسك والدي بعضدي وجرينا إلى الوادي. نادى علينا الرجل فذهبنا عنده وجلسنا خلف صخرة كبيرة. أمي كانت ملقاة.

جرى الرجل فجأة نحو الضوء، أطلقت الرصاص فرجع ثانية وألقى بالحقيبة على الأرض. الجنود كانوا يصرخون ويسلطون أضواء المصابيح على المنطقة من حولهم.

سكتت مريم ثم غلبها البكاء بدأت تبكي ثم قالت بصوت مخنوق:

ـ لم أكن قد فهمت.

وسمعت بكاء أبي:

ـ يا مريم، يا مريم افتحي عينيك.

نظرت من حولي كنت ملقاة وسط الصخور، وأبي يقوم بمسح كفي. ألقيت بنفسي في حضنه، بكيت؛ لم أكن أستطيع نسيان أذن أخي الملطخ بالدم نظرت إلى أمي فكانت بلا حراك إلا أنها لم تكن تتشخر.

وعلى الطرف الآخر من التل تتحرك الضوء من مكان إلى مكان آخر.

سمعت صوت الرجل:

ـ لم تتبق سوى مسافة قليلة.

لم يتحرك أبي. وضع الرجل يده على كتفه وقال بهدوء:

ـ الأمر صعب، لكن ليس لديكم حيلة أخرى.

استمر أبي في البكاء. أسند الرجل ظهره إلى الحقيبة، وظل صامتًا للحظات ثم قال:

ـ ليس بإمكانكم الرجوع إلى الخلف، وسيتم القبض عليكم من قبل الشرطة الإيرانية، وسيفصلون زوجتك وبنتك عنك بذريعة أخذهما إلى سجن النساء وبعدها سيفعلون بهما ما يشاءون وظل أبي يبكي. رفع الرجل الحقيبة، ونهض ثم قال:

ـ الأضواء بعيدة عنا، وعلينا أن لا نضيع الفرصة.

ظل أبي صامتًا لعدة لحظات، ثم نهض وحمل أمي على أكتافه، ولم يكن قد مضى نصف ساعة حتى وصلنا إلى الطرف الآخر من الحدود.

انتهى حديث مريم.

وبعد ربع ساعة اتصلت، وكانت تقول بأنهم سيقومون بصبغ ممرات المستشفى وسيستغرق يومًا واحدًا، إلا أن لوسي تملك الإنترنت في منزلها. واليوم أرسلت حديثي عبر عنوانها.

مريم كانت فرحة هذه المرة، وكانت تقول بأن محامي أبيها قال لها بأن محكمة الاستئناف يمكن أن تقوم بتخفيض مدة حبسه. لم يكن بمقدوري أن أذكرها بماضيها في وقت فرحتها؛ لكنني كنت أحس أن حديثها

ينقصه شيء ما، فلم أكن أستطيع صياغة القصة بشكل سليم فكان لابد أن أستعلم عنه.

ساعدني الحظ، فاستعلمت مني إن كان لدي ثمة استفسار فجمعت كل قواي حتى تجرأت وقلت لها:

ـ ماذا حدث لأخيك؟ وكيف تمكنتم من عبور الحدود؟

أجهشت مريم بالبكاء وانقطع الخط لمت نفسي بهذا السؤال، لكن لم يكن لدي حل آخر فكان لابد أن أعرف ما حدث. وبعد فترة ليست بالطويلة عادت واتصلت واعتذرت وقالت بصوت حزين:

ـ على الجانبين كانت تقع كتل صخرية رفيعة وكان علينا الصعود إلى ذات الطريق، وقفنا وسط الطريق وجلست أنا وأبي، وكان تتراءى لي النجوم على الأرض. مددت يدي إليها؛ فكانت كتلة الدم المتبقية من أخي ما زالت دافئة، كدت أن أصرخ إلا أني قبضت بأسناني على رسغي.

أمسكني الرجل من عضدي، كما نهض أبي بصعوبة، كان الظلام سائدًا إلا أني كنت أرى يد أمي الأبيض المتدلي من على كتف أبي. كان الرجل ممسكًا بكتفي وأمشي خلفه بسرعة. وكانت الأحجار تتدحرج فلم أسمع طلقات الرصاص ولا صراخ الجنود وبعد ربع ساعة من الجري كنا في الطرف الآخر من التل.

بكت مريم فجأة وانقطع حديثها.

ثم سألت بصوت مخنوق:

ـ هل يمكن أن يكون شقيقي حيًّا؟

ظللتُ صامتًا ازدادت مريم في بكائها حتى انقطع الاتصال.

وفي الصباح قمت بتنزيل حديث مريم. وعند المساء جلست أمام الحاسوب وكانت قد قالت:

ـ جلسنا بين جدران متهالكة، وكانت عبارة عن خربة قديمة وضوء النجوم الخافت يضيء الأحجار الساقطة من الجدران. أبي كان يلهث من شدة التعب فقد حمل أمي لمسافة ربع ساعة.

وأما الرجل فقد كان يجلس على صخرة بهدوء ثم خاطبنا بعد لحظات:

ـ إلى هنا تنتهي مهمتي.

وقام بفتح الحقيبة.

ربتّ على كتف أبي فالتفت إليه فقام فجأة وأمسك ذراع الرجل وقال له حائرًا:

ـ هذه حقيبتنا؟

قطع الرجل كلامه:

ـ لكن هذا ليس لكم.

وأخرج يده من الحقيبة وبها كيس.

سأله أبي بعجل:

ـ ما هذا؟

ـ هيروين.

أمسك برقبة الرجل وهزّه وصرخ عليه:

ـ أكنت وضعت الهيروين في حقيبتنا؟!

دفع أبي بكلتا يديه إلى الخلف فسقطت صخرة كبيرة من الجدار.

وقف الرجل وقال ساخرًا:

ـ من أجل هذه الحقيبة؛ غامرت الدخول وسط الرصاص حتى تمكنت من إحضارها.

رفع أبي يده.

رد عليه الرجل:

ـ لا تكن أحمقًا، فما زالت زوجتك وبنتك معك.

رجع الرجل إلى الخلف خطوتين، وأزال صخرة كبيرة من مكانها، وكان تحتها حفرة صغيرة فقام بوضع الكيس فيها ثم أعاد الصخرة إلى مكانها وعاد وجلس في مكانه.

صرخت أمي فجأة، فأطبق أبي يده على فمها فبدأت تشخر، ثم عادت وأغمي عليها. سمعنا وقع الأقدام، وتدحرج الأحجار الصغيرة، فاستلقينا جميعًا وبدأنا نسمع عواء الذئاب، جلس الرجل ونبح بصوت خافت فجاء رجلان كلاهما كانا شابّين يافعين وقف أحدهما مع الرجل وذهب الثاني ناحية الصخرة.

وضع الرجل يده على كتف الشاب الواقف أمامه، والتفت إلينا وقال:

ـ هذا أوزكان، وسيرافقكم حتى منطقة وان.

ثم تحدث مع الشاب بلغة لم أفهمها وأعتقد أن الحديث بينهما كان باللغة التركية.

حمل الشاب الحقيبة، وقال بلهجة فارسية مكسرة:

ـ يجب علينا الذهاب؛ فالمنطقة خطيرة.

وقام أبي بحمل أمي وخرجنا من الخربة فعاد الرجل إلى إيران، وفقدنا وسط الظلام أثر الشاب الآخر حاملًا معه كيس الهيروين، وتتبعنا الشاب الآخر تقدمنا إلى الأمام، ولاحظت على والدي التعب حيث كان يتنفس سريعًا.

قعدنا في أحد الأماكن، وسرعان ما تحركنا عندما أنار الضوء الصادر من السيارة وسط الأشجار العارية. تجاوزنا نقطتين عسكريتين، وكانتا بعيدتين عنا نسبيًّا فقط كنا نشاهد أضواءها.

ومن أجل أمي قطعنا مسافة ساعة في حوالي ساعتين ونصف. سمعت ثغاء الأغنام، وبدأنا نقترب من نباح الكلاب شيئًا فشيئًا، أنار الشاب المصباح اليدوي فجرى نحوه جروان صغيران

والتفَّا حول رجليه وهزّا ذيلهما.

دخلنا إحدى الغرف، كان الضوء فيها مضاءً، وقد تم نصب آلة نسج السجاد فيها، ويتناثر حوله عددٌ من رزم خيوط الصوف. حمل الشاب السراج وخرج من الغرفة. مرت لحظات فأبي كان يجلس بجانب النافذة، ويجهش بالبكاء وأمي لم يكن قد عاد إليها الوعي، كما كنت أحاول أن أضغط على نفسي حتى لا أصرخ.

كنت أسمع نحيب أبي لفترة طويلة حتى استغراقي في النوم لم أعلم كم كانت الساعة إلا أني استيقظت على وقع صراخ أمي. فتحت عيوني فإذا بأمي تنظر إلى يدها التي كانت ملطخة بدماء أخي، ولم تكن لتتوقف عن الصراخ.

اقتربت منها واضعة يدي على كتفها فالتفتت إلي بعيونها فكانت حمراء مثل الجمر الملتهب، مالت عليّ ووضعت رأسها على كتفي وصرخت بأعلى صوتها كلنا كنا نبكي ونصرخ ونردد اسم أخي.

وبعد مرور بعض الوقت حضرت امرأتان كبيرتان في السن، وتلبسان ملابس تشبه ملابس البدو المدورة كالتي عندنا. ذهبت إحداهما عند أمي، وأما الثانية فقامت باحتضاني فهِمتُ من دلعها لي أنها تعلم بقصتنا لم أكن أفهم لغتها؛ لكن لهجتها الهادئة كانت تدل على أنها تواسينا.

القرية كانت عبارة عن عدة بيوت، وكانوا يملكون قطيع الأغنام ورجالهم كانوا يلبسون بنطلونات واسعة، وجيوب صدرياتهم كانت بارزة وكانوا ينتمون إلى القومية الكردية، وبقينا فيها لمدة يومين.

لم أتحدث مع أمي أو أبي خلال اليومين أي حديث، فعن ماذا كان يمكن أن نتحدث. كنا صامتين غير أمي التي كانت تتحدث مع نفسها أحيانًا، تذكر اسم ابنها ثم تصرخ بصوت عالٍ:

ـ سيأتي ابني، سيأتي حتما سيأتي.

وأما نحن فكنا نبكي فقط. وفي اليوم الثالث حضرت سيارة كانت تحمل أقفاصًا مملوءة بالدجاج المحلي. فسح السائق طريقًا وسط الأقفاص

ثم أشار إلينا فذهبنا إليه دون أي كلام، وقعدنا في المكان المخصص لنا المحاط بأقفاص الدجاج من كل جانب ثم أتى بقفص آخر، ووضعه فوق رؤوسنا على ارتفاع حوالي شبر. كانت الروائح شديدة لا يمكن تحملها لكن لم تكن لدينا حيلة أخرى.

نظرت إلى أمي فكانت قد وضعت رأسها على كتف أبي، ورأيت بقعًا بيضاء من مخلفات الدجاج على ردائها الأسود التي تضعها على رأسها، صعدت السيارة إلى الطريق المعبد، وبعد أن سارت حوالي ربع ساعة عادت وسلكت طريقًا وعرًا، مررنا بقرية كبيرة بيوتها كانت مبنية من الطين، وبرزت من سطوح بيوتها مزابين خشبية، ويظهر على السطوح العشب الجاف.

واصلنا السير في أرض فضاء، وتوقفت السيارة عند مجموعة من التلال نظرت إلى الخارج من الفتحة بين الدجاجتين؛ فرأيت عجوزًا جالسة على الجسر تعد الفلوس، ثم أتى السائق وفتح باب القفص الموضوع فوقنا ورمى فيه بدجاجتين. تحركت السيارة ونظرت إلى أمي فما زالت تضع رأسها على كتفي أبي.

وعند الظهر دخلت السيارة إلى شارع معبد، ومرت أمامي لوحة إرشادية لم أستطع قراءتها بسبب حجب الدجاج للرؤية، وتمكنت من إيجاد فتحة عند وصولنا للوحة التالية، وكان قد كتب عليها... (وان ٣٠ كم).

انحرفت السيارة إلى طريق غير معبد لكنها لم تكن تهتز كون الطريق كان منبسطًا وسهلًا.

مرت لحظات ثم توقفت فبدأت الدجاج بالصياح، ورفع القفص الموضوع أعلى منا نهضت من مكاني فرأيت حولي الأشجار، وقد اصفر العشب بفعل تساقط الأوراق الصفراء من الأشجار.

وبعد نزولي من السيارة ذهبت وقعدت على صخرة كبيرة، والتفتُّ إلى أمي فأخذت طرف ردائي ومررتها على جبهة أمي فسقطت قطعة من روث الدجاج على الأرض ثم التفتُّ إلى أبي فرأيت الوسخ على كتفيه، وقد علقت ريشة بلحيته التي بدأت بالظهور وفحصت ردائي فوجدت بها بقعة وسخة.

رتب السائق الأقفاص، وأفهمنا إشارةً بأن لا نخرج من بين الأشجار وكنا نسمع صياح الدجاج حتى صعدت السيارة إلى الطريق المعبد. مضى ربع ساعة، وبعده حضرت سيارة أجرة. وبعد عشر دقائق كنا داخل أحد المنازل.

حضرت إلينا فتاتان، مسكت إحداهما من يدي وذهبت الأخرى إلى أمي. دخلنا صالة جميلة، قد غطت المرآة نصف الجدار. وفي أسفل منها طاولة عليها أنواع مختلفة من أدوات التجميل.

ذهبت إلى الحمام فأشارت البنت إلى الملابس المعلقة، وأفهمتني بأن أقوم بارتدائها بعد الانتهاء من الاستحمام.

وعندما وقفت أمام المرآة الموجودة في الصالة لم يعجبني الوضع الذي كنت عليه؛ فالبنطلون كان ضيقًا وملتصقًا بجسمي ويتدلى فوقه قميص قصير.

أخرجوا أمي فهمت بأنهم قاموا بتحميمها إلا أن التنورة والقميص اللذين كانا ترتديهما كانا أفضل مني؛ فالحزام كان قد اختفى تحت القميص ورأيت أبي يقوم بتغيير ملابسه، وقد ربطوا تحت ذقنه ربطة عنق حمراء.

ثم خرجنا من المنزل، وجلسنا في نفس سيارة الأجرة، والتفتُّ إلى أمي فرأيت أن الحزن ما زال موجودًا في عينيها الكبيرتين وما زال أطراف شعرها الأسود الطويل المتدلي على كتفيها مبللًا.

مدينة «وان» كانت صغيرة إلا أنها كانت جميلة؛ فغالب بيوتها كانت تتكون من طابقين أو ثلاث.

وفي محطة القطارات تم تسليمنا إلى شخص آخر طويل القامة ويهتز لحم رقبته المتدلي عند الحركة تجاوزنا القطار الخاص بنقل المسافرين. وبعد أن مررنا بعدة خطوط صعدنا قطارًا خاصًّا بنقل البضائع وكانت الغرفة مظلمة مليئة بالصناديق الكرتونية.

تقدمنا إلى الأمام وقعدنا فوق فرش من كرتون، مد إلي الرجل كيسًا بلاستيكيًّا ثم نزل من القطار وبعد لحظات أحضر عددًا آخر من الصناديق الكرتونية، وقام بتصفيفه أمام أقدامنا حتى وصلت إلى السقف وكان يمكن رؤية الضوء من خلال فتحات الصناديق إلا أنه بعد لحظات اختفى الضوء، وأصبحنا في ظلام دامس.

مضى وقت طويل ساعة.. ساعتان.. ثلاث ساعات ويمكن أن يكون أطول من ذلك، كان القطار واقفًا دون حراك ووضعت أذني على الجدار الخلفي للقطار ففهمت أن المحرك يعمل ثم أحسسنا بعدة هزات خفيفة، وكان القطار قد تحرك.

سمعت صوت خشخشة البلاستيك وقال أبي:

ـ هاك، لم نتناول أي شيء منذ الصباح.

مددت يدي في الهواء وأخذت شيئًا من يده، قربته من أنفي؛ فكانت تنبعث منه رائحة البطاطس المقلية (شيبس).

الكل كان صامتًا غير الصوت الصادر من قضم أبي للبطاطس تناولت ثلاث أو أربع حبات من الشيبس؛ لكن لم تكن لدي شهية؛ فلم أستسيغها أسندت ظهري إلى الخلف؛ فالحديد كان باردًا.

بقينا على هذه الحالة لفترة طويلة ثم غلبني النعاس فوضعت رأسي على فخذ أبي فمرت أصابع سميكة من بين شعر رأسي.

وعندما فتحت عيني سمعت صفارات السيارات، والقطار كان متوقفًا وأبي كان يشخر، ناديت على أمي فهي كذلك كانت نائمة لم أكن أعلم أفي ليل نحن أم نهار!، وعندما تحرك القطار ثانية عدت وأغمضت عيني.



الفصل السابع

أوقفت حديث مريم، ونظرت إلى المدفأة، وكانت تزأر من اللهب. ومع ذلك كانت الغرفة باردة، بحثت عن السبب فرأيت أن طرف الستار يهتز قمت إليها وأحكمت إغلاق الشباك الذي كان يدخل منه الهواء.

عدت وقعدت في مكاني، وكان مما قالته مريم:

ـ المكان كان ممتلئًا لحومًا حمراء، وكان العشرات من الحيوانات المسلوخة قد تم تعليقها، وتنساب من رقابها المقطوعة قطرات الدم، وقد احمرّ بها الرخام الأبيض.

تقدمنا، ورأينا عددًا من الناس وهم يلبسون معاطف بيضاء مصطفّين، وبأيديهم سكاكين ملطخة بالدم ويقومون بتقطيع العظام.

انزلقت أمي فمسكها أبي من عضدها فرفعت يدها إلى عينيها ونظرت إليها فكانت حمراء، صاحت أمي فجأة:

ـ الدم.

احتضنها أبي وبدأت تصرخ بصوت عالٍ وتردد اسم ابنها، وبدأ أصحاب المعاطف البيضاء ينظرون إليها حيارى. رجع الرجل النحيف الذي كان أمامنا وتمتم بكلمات ذات نبرة غاضبة، فمشينا خلفه.

كانت السلم ملطخة بالدم، نزلنا إلى الأسفل، فتح الرجل الباب الحديدي، دخلناه؛ فرأينا عددًا من النساء والأطفال والرجال يجلسون تحت ضوء أصفر خافت ونحن بدورنا قمنا بإسناد ظهورنا إلى الجدار البارد، والناس الجالسون كانوا يحدقون فينا أمي كانت تمعن النظر في يدها.

سحبت سحاب الشنطة، وأخرجت قطعة قماش ومسحت بها يد أمي إلا أنها قبضت فجأة على القطعة فنظرت إلى القطعة فإذا هو قميص أخي.

قربت أمي القميص إلى صدرها، وبدأت تصرخ والناس الجالسون ينظرون إليها بحيرة وتعجب.

وبعد مرور فترة رأيت طفلين يتحدثان بينهما باللغة العربية وتبين لي بأن جميع القاعدين من جنسيات عربية، وكنا الأفغان الوحيدين بينهم.

فقد كنا في أنقرة عاصمة تركيا! وقبل ساعة أنزلونا من القطار، الشمس كانت فوق رؤوسنا، وكنا لا نطيق ضوءها فقد رأينا الشمس بعد ظلام دام لمدة ستة عشر ساعة فقد أحضرونا إلى هذا المسلخ القريب.

مكثنا ثلاثة أيام في تلك الغرفة، والأشخاص الذين كانوا معنا كانوا من العراق وسوريا، كانوا لاجئين غير قانونيين مثلنا ويرغبون في الهجرة إلى أوروبا.

وفي صباح اليوم الرابع أخرجونا من تلك الغرفة إلى شاحنة ذات ثمانية عشر إطارًا وعليها صندوق طويل يشبه حاويات الشحن فصعدنا إليها، وكانت تتدلى فيها لحوم حمراء.

مشينا إلى الأمام وحتى نهايتها كانت الحيوانات المسلوخة معلقة والهواء كان باردًا، وجلسنا خمسة عشر شخصًا في مكان يتسع لسريرين فقط شعرت ببرودة في يدي فالتفتُّ بهدوء فإذا بي قد وضعت يدي على رقبة أحد الحيوانات المذبوحة.

حركت أصابعي فكانت متجمدة فضغطت على فخذ الحيوان وكان متجمدًا أيضًا، لمست بيدي الجدار فرأيت أن الثلج قد تعلق به، فعلمت أننا نجلس داخل ثلاجة كبيرة سمعت صوت إغلاق باب الثلاجة الكل كان في صمت مطبق، الأطفال كانوا يحدقون في اللحوم المتدلية، وفي السقف عدد من المصابيح الصغيرة.

انطلقت السيارة، وفي اللحظات الأولى لم أحس بشيء إلا أنه بعد ذلك بردت يداي فأخرجت من الشنطة معطف أبي، ووضعته على كتفي أمي، وأعطيت لأبي شُرّابًا وتغطيت أنا بردائي الأسود الذي ينبعث منه رائحة الدجاج العفنة كما قام بقية المسافرين بنفس الفعل، وبقيت فتاة واحدة ترتجف من البرد لم أفهم لعلها لم تكن تملك شيئًا آخر لتتغطى به.

أخرجت معطف أخي وألبسته إياها؛ فقالت السيدة الجالسة بجانبها شيئًا فهمت أنها قريبته وأنها تشكرني على صنيعي التفتُّ إلى أمي فرأيتها تحدق في المعطف.

كان الوقت يمضي والبرد يزداد وصبر الأطفال بدأ ينفد رويدًا رويدًا، وأصبحت الشنط فاغرة أفواهها إذ لم يبق فيها شيء يمكن التغطي به.

التفتُّ إلى أمي فأحكمت سحّاب معطفها الذي كانت تلبسه صرخت سيدة فالتفتُّ إليها فإذا بها تحمل في حضنها طفلًا صغيرًا.

أسرع رجل ملتحي إليه، وحمل الطفل الصغير، وقربه من صدره، ودلّك على يديه واستفاق من غيبوبته إلا أن شابًّا آخر انهار. قام الرجال وبدأوا بلكم الجدار الحديدي فارتجت الثلاجة بالصراخ.

توقفت السيارة فتحت الباب الموجود في المؤخرة فدخلت أشعة الشمس الصفراء من بين اللحوم المعلقة جرى الجميع ناحية الباب فانفصلت كتلة من اللحم من العلّاقة واتجهت إليَّ مباشرة فقفزت من مكاني بسرعة.

وعند وصولي إلى الباب رأيت أن الجميع يقفون عندها والنساء والأطفال يبكون نظرت إلى الأسفل من فوق كتف أحد الأطفال، فرأيت شابًّا منكسًا رأسه وقد تربع وسط الشارع وبالقرب منه يقف ثلاثة رجال وبأيديهم مسدسات. ولاحظت أن المعطف الذي يلبسه الشاب ملطخٌ بالدم.

قال أحد العرب الذي كانت تبدو عليه الحيرة باللغة الإنجليزية:

ـ لقد هلك الأطفال من شدة البرد.

صرخ عليه أحد المسلحين:

ـ لا نستطيع ان نفسد حاوية اللحم بكاملها من أجلكم.

وتقدم مسلح آخر ورفس الشاب المتربع في كليته وقال له بنبرة غاضبة:

ـ اصعد إلى السيارة.

نهض الشاب بصعوبة بالغة ثم قال المسلح نفسه:

ـ لقد وضعنا درجة حرارة الثلاجة على أخف درجة فلو أُطفئت كاملة فستشتبه بنا الشرطة فأمامنا نقطة تفتيش، ولا أريد أن أسمع صوتكم عدنا جميعا إلى أماكننا.

تحركت السيارة، وقد تعدلت درجة حرارة الثلاجة بعد أن ترك الباب مفتوحًا لمدة خمسة أو ستة دقائق. وكان الشاب المغمى عليه قد فتح عينيه، وبجانبه رجل يغطيه بالمنشفة توقفت السيارة بعد المسير لفترة قليلة فازداد خفقان قلبي إلا أنه لم يتم فتح باب الثلاجة.

تحركت السيارة ثانية، وكان الشاب المجروح يتأوّه، وبدأ الطقس يسخن شيئًا فشيئًا فقد تم إطفاء الثلاجة لفترة قليلة وعندما أعيد تشغيلها ثانية بدأ الهواء البارد يخرج من الجدار.

وبعد مرور فترة من الوقت أغمي على رجل نحيف وطفلين وما عدا أمي بدأ الجميع بالضرب على الجدار الحديدي الأطفال والنساء يبكون وبينما الرجال كانوا يصرخون.

فجأة توقفت السيارة فتزحلقنا جميعًا باتجاه الجدار الأمامي واصطدم رأسي بحديد بارد، ثم تحركت السيارة ثانية فاهتزت بقوة فسقط الجميع إلى الخلف. رأيت أبي يقوم بإزاحة كتلة لحم كبيرة من على فتاة صغيرة والتفتُّ إلى أمي فقد كانت تمسك رأسها بكلتا يديها أحسست بالسخونة في شفتي العليا مددت يدي فكانت أنفي تنزف.

كنت أحس بالدوخة والنساء كن يصرخن بكاءً، والرجل النحيف مع ثلاثة من الأطفال ملقًى دون حراك اقتربت من أمي، ومررت أصابعي على رأسها؛ فظهر لي أنها لا بأس بها رفعت طفلًا مغمى عليه، وتبين لي من حركة نبضه أنه ما زال حيًّا.

لفَفْت بردائي اثنين من الأطفال، وحملت الفتاة الصغيرة ورقبتها كانت باردة كالثلاجة مسكت الفتاة في حضني فمال رأسها إلى الأسفل مدت إليّ يديها وأخذت الفتاة من حضني نظرت إليها فإذا هي أمها؛ فنادت على ابنتها باسمها ثلاثًا أو أربع مرات، وما زلت أذكر اسمها.. كان اسمها زينب.

وبدأت أمها تنظر إليها طويلًا ثم صرخت بصوت عالٍ. ازداد الصراخ ومع ذلك فلم تتوقف السيارة ولا أطفئت الثلاجة. بدأت مريم بالعطاس حاولت الحديث عدة مرات؛ لكن العطاس لم يمهلها ثم قالت بصوت غير واضح:

ـ اليوم أحس بالتعب فقد أرجعت الدم مرتين، وليست لديه القدرة على التحدث إلا أنني لا أريد أن أترك قصتي ناقصة.

ثم عطست مريم وقالت:

اهتزت السيارة، ثم توقفت وفتحت باب الثلاجة. ومع رائحة الأسماك وصل إلى مسامعنا صوت الأمواج حضر إلينا شخصان ومعهما مسدسات وطلبوا منا النزول. نهضت بصعوبة من مكاني ورأيت أبي ماسكًا أمي من ذراعها.

كان الظلام دامسًا في الخارج، والطقس كان دافئًا أو أننا كنا نحس بدفئها كيفما كانت؛ لكنها كانت أفضل من طقس الثلاجة.

وبعد لحظات كنا نقف أحد عشر شخصًا على الشاطئ من بين الخمسة عشر الذين كانوا في السيارة.

كانت اثنتان من النساء تبكيان وتحاولان الرجوع إلى الثلاجة؛ حيث جثتي طفليهما إلا أن اثنين من العرب كانا يمسكانهما بقوة، وكانت السيدتان تبكيان وتصرخان حتى اختفت الشاحنة وسط الغابة المظلمة. جلسنا على الرمل بينما أمواج البحر تضرب الصخور على الشاطئ.

سمعنا صوت المحرك يقترب منا فكان قاربًا صغيرًا ذا محرك واحد.

صعدنا القارب بعد أن مشينا إليها في المياه التي وصلت إلى ركبنا ثم تحركت بأنوار مطفأة بينما رذاذ الماء المتطاير يضرب على وجوهنا.

تقدمنا إلى الأمام وبدأنا نقترب ناحية الأنوار شيئًا فشيئًا ورائحة الأسماك كانت مخلوطة مع الهواء الشديد. وكنت قد درست في الصف الثامن في مادة الجغرافيا بأن مدينة اسطنبول تقع في الجزء الأوروبي ويفصل بينها وبين بقية تركيا مياه البحر.

كان ظني صحيحًا فقد رأيت علم تركيا مرفوعًا على الشاطئ توقف القارب أسفل سفينة ضخمة، وكان بها سور دخلنا إليها عبْرَه. أضاء المرشد المصباح الكهربائي فرأينا أنفسنا داخل غرفة المحركات وتخطينا الأجراس والمحركات ثم صعدنا إلى الأعلى إلى غرفة واسعة تدخلها الهواء عبر فتحاتها الصغيرة.

جلسنا فيها بناء على أوامر المرشد، وقضينا الليلة على الألواح الخشبية، ولم يتركني السعال للنوم فتحت عيوني بفعل أصوات الطيور البحرية فرأيت أن الجميع قد استغرقوا في النوم.

نهضت من مكاني ورأيت في الموقد الموجود في إحدى الزوايا رمادًا بجانب الأحذية القديمة وأعقاب وعلب السجاير والعظام المقضومة أدركت أن المكان قد دخله أناس آخرون غيرنا.

ما إن وضعت يدي على السلم المؤدي إلى أعلى السفينة حتى سمعت صوتًا رفعت رأسي إلى الأعلى فرأيت شخصًا واقفًا أفهمني إشارة بعدم الصعود قضينا النهار كله في السفينة، ولم نكن نسمع شيئًا سوى زقزقات الطيور البحرية ومحركات السفن المارة بالقرب منا.

وفي المساء وبعد أن ساد الظلام المكان خرجنا من السفينة وصعدنا قاربًا صغيرًا وكانت المسافة حتى الشاطئ حوالي خمسين أو ستين مترًا.

وبعد أن نزلنا عند الشاطئ حضرت سيارة لنقل المخلفات وصعدنا إلى الخلف وجلسنا وسط الأكياس البلاستيكية السوداء الممتلئة وأحضر شخصان أكياسًا أخرى وألقوها فوقنا.

تحركت السيارة فهمت من حركتها أنها تسير داخل المدينة. وبعد حوالي نصف ساعة رفعوا عنا الأكياس فوجدنا أنفسنا داخل منطقة مسورة وفيها آلاف من إطارات الشاحنات.

صعدنا إلى مقطورة الشاحنة وقد وضعت الإطارات فيها على شكل قوالب أفهمني أحد الأشخاص بالإشارة أن أنزل في كومة الإطارات امتثلت لأمره وبقيت واقفة؛ حيث لم أستطع الجلوس وذقني كان يلامس طرف إطار آخر نظرت إلى الآخرين فكلهم كانوا يقفون وسط الإطارات.

وبعد لحظات أحضروا إطارًا آخرَ ووضعوه فوق بقية الإطارات، وبدأت أشم رائحة الإطارات. وبعد مرور ساعة من الوقوف تحركت السيارة، ولم أكن أتحكم في نفسي؛ فقد كانت الإطارات تأخذني معها إلى الخلف عند المطبات.

لم أكن أرى أي شيء إلا صوت الذي كان يقف عن يميني أبي بين الفينة والأخرى يقول:

ـ كيف حالك؟

وبعد ساعتين من المسير خرجت من وسط الإطارات كنت أحس أن قلبي قد تقطع إربًا إربًا.

أخذونا إلى أحد المنازل، الغرفة كانت لا بأس بها كما أن بها نافذة لم نكن نرى غير الأشجار الواقفة في الحديقة؛ حيث كنا في الطابق الأول.

وفي الليل غلبني السعال، وكنت أحس بالحرقة في المعدة أحسست بالمرارة في فمي ذهبت إلى الحمام وقفت أمام المرآة فرأيت الدم الأحمر على شفاهي؛ فخلال ثلاثة أيام تقيأت الدم مرتين إلا أني لم أشأ أن أخبر أبواي بذلك.

وفي مساء اليوم الرابع أدخلونا إلى الغابة مع نفس المجموعة المكونة من أحد عشر شخصًا، وكان المهرب الذي معنا يصر على شيئين:

ـ سنقطع مسافة خمس ساعات مشيًا على الأقدام، ومن تخلف عن المجموعة فقد تخلف.

لم نكن نملك الخيار للاعتراض تقدمنا حتى وصلنا إلى عدد من الهضاب المغطاة بأشجار الصنوبر. كنا نمشي في صف طويل ويمشي من خلفنا وأمامنا رجلان مسلحان. وبفضل ضوء القمر كنت أستطيع من وضع قدمي في المكان الصحيح.

وبعد ساعة ونصف من السير توقفنا للاستراحة عند مجموعة الصخور الضخمة، وكان ضوء القمر يتخلل من وسط أغصان الأشجار مضيئة الأرض. سمعنا عواء الذئب فقام المسلحان بسحب زناد سلاحهما. وبعد خمس دقائق نهضنا من بين الصخور تاركين خلفنا عواء الذئاب وصعدنا قمة التل ثم نزلنا وبدأنا السير على طرف التل.

فجأة حدثت ضجة فقد انزلق أحدهم فالتفتّ إلى مصدر الصوت، ورأيت رداءها قد تعلقت في غصن شجرة وعندما اقتربت منها أكثر رأيت امرأة وقد دخل الغصن في بطنها وتفور الدماء منه.

أسرع أحد العرب ورفع رأس المرأة وفتحت المرأة فمها مرتين أو ثلاثًا ثم برز بياض عينيها ومال رأسها صرخ الرجل واحتضن رأس المرأة بقوة وبدأ الرجل يبكي بصوت عالٍ.

اقترب منه أحد المسلحين ومسكه من ذراعه لكن الرجل رفض النهوض وبدأت الذئاب تعوي.

فقال الرجل المسلح:

- تحركوا تحركوا.

تحركنا وبدأنا التقدم إلى الأمام ومازلنا نسمع صراخ الرجل وعواء الذئاب الذي يقترب شيئًا فشيئًا من صراخ الرجل. وبعد لحظات كانت الصراخ قد اختلط مع عواء الذئاب.

صعدنا ونزلنا عددًا من التلال لكن الأشجار الكثيفة لم تكن لتنتهي وبعد مسير خمس ساعات دخلنا غرفة مبنية من الأخشاب، وكانت وسط الغابة لم يكن لها باب وجدرانها مبنية من ألواح خشبية سميكة، وسطها طاولة خشبية وسخة عليها عددٌ من طلقات الخرطوش الفارغة.

وبعد حوالي ساعة حضر إلينا ثلاثة أشخاص آخرين فهمنا من طريقة إصدارهم للأوامر أننا سنتبعهم بعد هذا المكان. حدسي كان صائبًا فقد أخبرنا الرجال الجدد قائلين إننا الآن فوق الأراضي اليونانية، وطلبوا منا عدم الخروج، وأنهم سيعودون إلينا في تمام الساعة الثامنة صباحًا.

وبعد أن استلقينا للنوم وأحسست بلمسة على رجلي، فرفعت رأسي فعرفت أنه يد أحد العرب فجمعت رجلي إلا أن اليد قد طال أكثر، وقام بقرصي فجلست في مكاني ونظرت إلى أبي فإذا هو نائم فبقيت الليل كله ساهرة.

وفي الصباح عرفت صاحب القرصة من كمه ذي اللون البني كان رجلًا عربيًّا ضخمًا كبير السن منكسر الرأس لم يكن يستطيع النظر إلي. شممت رائحة الطين المبلل وقفت عند الباب فكان المطر يهطل.

وفي الساعة الثامنة صباحًا جاء شاب أشقر نحيف الجسم لابسًا معطفًا ذو خوذة مانعة للتسرب، وأخبرنا بأنه يجب علينا البقاء هنا حتى المغرب ثم قام بإعطاء كل واحد منّا علبة بسكويت وخرج من الغرفة.

كنت أحس بالنعاس فوضعت رأسي على فخذ أبي. وبعد لحظات كنت قد استغرقت في النوم وعندما فتحت عيني رأيت نفسي واضعة رأسي فوق فخذ أمي.

دنوت من الباب فرأيت أشعة الشمس الصفراء قد دخلت من بين الأوراق الصغيرة المبللة للأشجار.

وبعد أن غربت الشمس حضر الرجال الثلاثة، وتحركنا. وبعد مسير نصف ساعة سمعت صوت حركة السيارة، وبعد أن اجتزنا تلًّا شاهدنا شارعًا معبّدًا على بعد مائة أو مائة وخمسين مترًا.

جلسنا وسط الأشجار فنبهنا أحد المهربين بأن نقضي حاجتنا هنا ففهمت أن أمامنا سفر طويل.

وبعد قليل انحرفت شاحنة من الشارع، ودخلت بين الأشجار الكثيفة وتوقفت بالقرب منا. أسرعنا إلى الشاحنة، وكانت ممتلئة بماكينات لغسيل الملابس ونزلت إلى إحدى الغسالات.

بدأ الصراخ داخل الشاحنة فالتفتُّ خلفي فرأيت الرجل العربي الضخم ذا الكم البني محشورًا بين الغسالة وشخصان يضغطان على كتفيه؛ ليمكنوه من دخول الغسالة.

جلست في الغسالة، المكان لم يكن به بأس سوى الركبتين اللتين لم أكن أستطيع ثنيهما رأيت فتحة على جانب الغسالة فعرفت أنها قد صُممت خصيصًا لتهريب المسافرين.

سمعت وقع الأقدام نظرت إلى الأعلى فمدَّ إلي أحد الأشخاص علبة صغيرة بحجم علبة عود الثقاب. وبعد لحظات وضعوا غسالة أخرى فوقي أصبح المكان مظلمًا، وكان هناك ضوء خافت يتخلل من خلال تلك الفتحة الموجودة في أحد جوانب الغسالة.

وبعد مضي فترة من الوقت قمت بفتح العلبة حسبتها علكة فوضعت إحداها في فمي، وكان مذاقها مذاق النعناع.

وبعد لحظات أحسست بالثقل في عيني ورغم أني كنت قد أكملت نومي أحسست بعدها بالإغماء فظننت أن هذا من تأثير العلكة.

وهنا انتهى حديث مريم.

***

الفصل الثامن

في الصباح كنت في مكتبي إذ رن جرس الهاتف، وكان على الطرف الآخر من الهاتف شقيقي أخبرني بأن صحة الوالد على غير ما يرام.

انتابني القلق، استأذنت في الخروج، الشارع كان لزجًا والسيارات لم تكن تستطيع السير فيها إلا بربط السلسلة مع الإطارات فاستغرق المسير ضِعْفيِ المدة المفترضة للوصول إلى قريتي.

والدي كان قد أصيب بسكتة قلبية؛ لكنه كان قد تعافى فشكرت ربي على ذلك. بقيت في القرية ثلاثة أيام، وكان الأطفال فرحين بقدومي، وكنت أمضي نصف اليوم في رمي كرات الثلج.

وفي صباح اليوم الرابع عند خروجي من المنزل كان الثلج يتساقط بغزارة.

وصلت إلى منطقة سيد آباد بولاية وردك عند الساعة الواحدة ظهرًا، فرأيت أن القوات الأمريكية قد قامت بإغلاق الطريق باتجاهين وذلك لانزلاق سيارتين تابعتين لهم فوصلت إلى منزلي في كابول في بعد غروب الشمس، فتحت الكيس فقد قامت أمي بوضع اللحم المقدد المطبوخ ملفوفًا في خبز رقاق.

وعندما وصلت في الصباح إلى المكتب وجدت أن مريم قد أرسلت لي رسالة عبر البريد الإلكتروني .

وبعد العشاء جلست خلف شاشة الكمبيوتر وكان مما قالته مريم:

ـ لم أكن أستطيع تحديد الوقت هل مرت علي ساعة أو ساعتان، يومًا أو يومان. لم أكن أعلم إلا أني بعدما استعدت وعيي كان المكان مضاءً وكنت أحس بالألم في رأسي جلست حيث كنت أشعر بالدوخة نظرت حولي فلم أجد غير الحديد الصَّدِئ.

سمعت صوت أبي:

ـ كيف حالك؟

درت إليه بوجهي فرأيته متكئًا على مِقْود السيارة، نهضت من مكاني فرأيت نفسي في باص مهترئ قديم بحثت عن أمي فوجدتها ممدَّدة وسط الكراسي فاقدة للوعي.

قال أبي:

ـ يحتاج إلى الوقت فأنا بدوري قد استعدت وعي منذ قليل.

سمعت بكاء طفل فقمت برفع الستار البلاستيكي من نافذة الباص فرأيت امرأة نحيفة جالسة على إطار تقوم بإرضاع الحليب بواسطة الرضاعة البلاستيكية. نزلت من الباص فرأيت مئات من السيارات المتهالكة مرمية بعضها على بعض.

قمت بالدوران حول الباص المكان كان عبارة عن أرض فضاء، وقد تم حوله سياج من السيارات المتراكمة بعضها على بعض.

سمعت شخيرًا صادرًا من إحدى السيارات القديمة المتوقفة فنظرت فيها فشاهدت امرأة ضخمة تنام في المقعد الخلفي. سمعت صوتًا فإذا بقطعة حديدية صغيرة سقطت من أمامي نظرت إلى الأعلى فإذا بأحدهم يجلس في كابينة الحفارة القديمة لم يكن على رأسه شعرة واحدة إلا أني عرفت من بروز الصدر أنها فتاة.

أنزلت الفتاة رجلها من الحفارة وقد نقش على فخذها صورة ثعبان وأخرجت مسدسًا من حزام بنطلونها الضيق القصير أفهمتني أن أعود من حيث جئت.

صعدت إلى الباص فقد عاد الوعي إلى أمي إلا أن عيونها الكبيرة كانت ما زالت ذابلة. جلست على كرسي ممزق وقد علاه الصدأ، ونظرت إلى الخارج عبر الزجاج المكسور فعرفت أن المكان عبارة عن مرآب للسيارات والشاحنات المهترئة، ثم وضعت رأسي على الكرسي الأمامي وبدأت ذكريات بلدي تنهمر علي؛ فشقيقي بدا يضحك بينما كنت أمسك بطرف الخيط وهو يحاول الإمساك بطائرته الورقية. تذكرت وحيد وهو ينظر إلي داخل الفصل.

وبعد مضي برهة من الوقت قطعت حبل أفكاري طرقات الحديد استطلعت الأمر عبر الزجاج المكسور فرأيت الفتاة الحليقة الرأس تدق في مقدمة إحدى السيارات المتوقفة.

فتِحت أبواب السيارات الأخرى، وخرج منها الناس شيبًا وشبّانًا وبأيديهم أواني وذهبنا إليها كذلك ووقفنا في الطابور، وعندما وصل

دوري ناولني رجل عجوز إناء حديديًّا، وكان به البطاطس المسلوقة وسط المياه. عدت إلى الباص، ولم أكن أستطيع بلع البطاطس الباردة.

نظرت إلى خارج الباص فرأيت الناس قاعدين على قطع الحديد ويتناولون البطاطس وفهمت من خلال شعرهم المبعثر وملابسهم المتسخة وهيئاتهم الرثة؛ أنهم لم يرَوْا المياه منذ فترة طويلة.

كلهم كانوا- مثلنا- لاجئين غير قانونيين كل عائلة تعيش في إحدى السيارات. وعند العصر بينما كنت جالسة في الباص إذ سمعت صوت أغنية للمغني الأفغاني فرهاد دريا فأسرعت نحو الصوت فإذا به صادرٌ من سيارة إسعاف. طرقت الباب قامت فتاة ذات عشر أو إحدى عشر ربيعًا بفتح الباب قلت لها على عجل:

ـ هل أنتم أفغان؟

ـ سرعان ما أزيلت الستار؛ فإذا بعائلة كاملة داخله.

قامت امرأة كبيرة السن باحتضاني، وقامت فتاة أخرى بفرش كرتون فجلست عليه كانوا ستة أفراد: الجدة، الأم والأب بالإضافة إلى ثلاثة أولاد.

جُلت بنظري في السيارة فرأيت ثيابًا متسخة معلقة على عمود التغذية، وقد تم ربط البطارية بالأسلاك المبعثرة والخارجة من مقدمة السيارة، وفهمت من تأوهات الجدة أن صحتها ليست على ما يرام.

وأخبروني كذلك أن المكان يوجد به عدد آخر من الأفغان مكثت عندهم نصف ساعة ثم خرجت بعد أن أرشدت الفتاة إلى مكان السيارة التي نقطنها أخبرت أمي بالأمر ففتحت عينيها دون أن تنبس ببنت شفة.

وبعد غروب الشمس أضيء المكان بضوء أصفر فنظرت إلى الخارج فرأيت مصباحًا معلقًا على الحفارة.

وبعد العشاء صبُّوا لنا أرزًا جافًّا في الأواني فتناولتها مع البطاطس المتبقية من الظهر؛ لأني كنت أشعر بالجوع.

جلست على إحدى الإطارات فجاءتني الفتاة الأفغانية. كانت حبوبة جدًّا واسمها زهراء، وقالت إنهم حضروا إلى اسطنبول بالطائرة، وعبرنا إلى اليونان مشيًا وأتوا بنا إلى هذا المكان في داخل ماكينات لغسل الملابس.

وأضافت الفتاة أنهم أجلسونا مرة في السفينة إلا أن اضطراب البحر جعلهم يقومون بإرجاعنا إلى أماكننا ونعيش في هذا المكان منذ أسبوعين، وقد اتفقنا مع المُهرب على إيصالنا إلى الدنمارك حيث يقيم عمي.

خفق قلبي بمجرد سماع ذكر الأسبوعين إلا أن الفتاة أشارت إلى الأطفال الجالسين في التراب، وقالت إنهم من العراق وأخبرتني أمهم أنهم يقيمون في هذا المكان منذ واحد وعشرين يومًا.

صمتت زهراء فنظرت إليها فعرفت من حالها أني متضايقة من الانتظار كل تلك الفترة فقالت مبتسمة:

– إن الحظ يلعب دوره في الموضوع.

جلسنا على الإطار لفترة طويلة نتجاذب أطراف الحديث بينما الفتاة حليقة الرأس كانت تجلس في حضن رجل أشقر. وعلى الطرف الآخر رجل أسود يجلس متربعًا في التراب يردد أغنية لم أكن أفهمها إلا أن نبرة صوته كان بها الحزن بينما تتلألأ النجوم في السماء.

استيقظت في الصباح على صوت زهراء، وقد أحضرت معها أبريقًا أسودًا وأثناء تناول الفطور سمعت صوت محرك السيارة التفتُّ بهدوء فرأيت فتاة طويلة جميلة ونظيفة نزلت من سيارة فخمة ذات زجاج مظلل. كانت ترتدي نظارات سوداء كبيرة ثم ذهبت وجلست فوق الإطار ناكسة رأسها.

سألت زهراء:

ـ هل هي مهربة؟

ضحكت:

ـ لا فهي مثلنا لاجئة غير قانونية.

تحيرت في أمرها. فأضافت زهراء:

ـ هي إيرانية وحكت لي القصة؛ حيث أن أخاها تم قتله من قبل الشرطة اليونانية والمهرب يطلب منها قيمة توصيلها إلى هذا المكان، وهي لا تملك فلسًا واحدًا؛ لذا فهم يأخذونها كل ليلة ومضطرة إلى أن تنام يوميًّا مع ثلاثين شخصًا على الأقل حتى تستطيع سداد مبلغ ثلاثة آلاف دولارًا.

انتفض جسمي كله.

قالت زهراء:

ـ هل ترى ذلك الولد؟

نظرت إلى الجهة التي أشارت زهراء بإصبعها نحوه فإذا بشاب يافع يجلس فوق قطعة حديدية كبيرة.

فقلت لها:

ـ نعم أراه.

ـ هو أفغاني لن تستطيعي رؤيته من هنا بشكل صحيح لكنك لو اقتربت منه لرأيت أن إحدى عينيه مفقوعة، وهو كان رفيق دربنا كان عطشانًا، وتشاجر مع المهرب من أجل الماء فتلقى ضربة في عينيه بواسطة السكين.

فهمت من حديث زهراء أن هذا المكان مجرد مكان للمتاجرة بالإنسان فسوق المتاجرة بالأطفال الذين ليس لديهم من يرعاهم كان على أشده إما أن يتم بيع أعضاء بدنهم أو بإجبارهم على ممارسة الجنس.

سمعت صوتًا فالتفت فإذا بأخت زهراء تخبرها بأن الحالة الصحية للجدة غير مستقرة ذهبنا إليها بسرعة فرأينا والد زهراء يقوم بربط ذقن الجدة بواسطة خيط أبيض. صرخت زهراء وألقت بنفسها على جدتها.

عدت إلى الباص، وأخبرت أبواي، وبعد مضي ساعة رجع أبي، وكان

به جرح في يده، وقال بأنهم حفروا القبر بين السيارات لم يكن يوجد شيول لنحفر به القبر فانجرحت يدي أثناء الحفر بقطعة حديدية قديمة.

حالفنا الحظ وفي مساء اليوم الثامن جلسنا في قارب سريع، وكانت ممتلئة عن آخرها لم أتمكن من عد الجالسين لكن كان يمكن تخمينهم بخمسين شخصًا.

كانت زهراء جالسة بجانبي وكانت حيرى، وكانت تحكي لي قصة المحاولة السابقة. وقالت بأنه أثناء محاولتنا وجودنا في القارب ارتفعت أمواج البحر وجاء موج عال وغطى السفينة، ولمّا تراجعت كنا قد فقدنا اثنين من الركاب.

انتابني القلق من كلام زهراء فنظرت إلى المياه فقد كانت هادئة، وما زالت الشمس تسلط شعاعها الأصفر على كتلة سحاب ضخمة.

كانت مريم قد تحدثت إلى هذا الحد.

***

مضى يومان ولم يصلني أي خبر عن مريم لا عبر البريد الإلكتروني ولا عبر الهاتف اتصلت على رقم مريم لكن الهاتف كان مغلقًا.

مضى أسبوع كامل ولم يردني أي أحوال عنها– لا أتذكر بالضبط– ففي يوم الأحد أو يوم الاثنين وصلتني رسالة عبر البريد الإلكتروني الخاص بلوسي وكانت قد اكتفت بعبارة: حديث مريم.

قمت بنسخ حديث مريم. لم أكن أطيق الصبر فقمت بتشغيلها في المكتب، وكان صوت كحة مريم يُسمع من خلال سماعات الحاسب الآلي تنبه إليّ أحد زملائي فقمت بإطفاء التسجيل.

وفي المساء وما إن وصلت إلى البيت حتى جلست أمام الحاسب الآلي وقبل أن أقوم بإشعال النار في المدفأة لسماع حديث مريم التي كانت قد أخذها السعال وكانت تأخذ أنفاسها أسرع من المعتاد وتحدثت بصعوبة:

ـ لقد اتصلت عليك عدة مرات إلا أنك لم تجبني.

عادت وأخذها السعال والعطاس؛ فأدركت أنها قامت بتسجيل حديثها هذا عندما كنت في القرية.

سمعت صوت رشفة المياه ثم بدأ صوتها واضحًا بعض الشيء وكانت قد قالت:

ـ يعتبر البحر الأبيض المتوسط مقبرة اللاجئين غير القانونيين فقد غرق في مياهها الزرقاء المئات أو أكثر من مختلف الدول. واصلنا السير في هذا البحر لمدة خمس ساعات فلم يتهيج البحر خلاله كما لم يصادفنا أي دورية لقوات الحرس الحدود الإيطالي، وعند وصولنا للشاطئ صعدنا عبر الصخور السوداء، ودخلنا إلى نفق ينيره ضوء خافت.

وتقدمنا فيه إلى الأمام حتى وصلنا إلى عدد من الغرف الصغيرة المبنية من الصخور، وقد تدلت منها الأيادي البيضاء والسمراء عبر

الحواجز الحديدية أسندنا ظهورنا إلى الصخور، كان الصراخ يملأ المكان وشاهدت عددًا من الجماجم البشرية ملقاة بين الصخور وتتقاطر المياه على الصخور من السقف بينما يسمع أنين العاجزين عن دفع المبالغ من خلف تلك الأقفاص الحديدية.

قاموا بإخراج عائلة زهراء في الصباح وأما دورنا فقد حان بعد ثلاثة أيام حيث سلكنا طريقًا قصيرًا عبر الهضبة التي تغطيها أشجار البلوط المبللة، وتهب علينا الرياح الخفيفة ذات الرائحة العفنة.

كان الطريق قصيرًا فعلى الطرف الآخر من الهضبة كانت توجد طريق معبد يظللها أغصان أشجار البلوط الواقفة على طرفي الطريق.

ما إن وصلنا إلى الشارع حتى وقفت شاحنة فصعدنا إليها مسرعين وقعدنا على السرير الموجود خلف المقعد الأمامي.

تحركت السيارة وبعد مسير ساعتين أنزلنا السائق أمام منزل مهجور قام رجل في الأربعين من عمره بفتح الباب لنا. كان المنزل عبارة عن غرفة صغيرة تحتوي على ثلاثة كراسي قد وُضعت بجانب الجدار وعلى الطرف الآخر سرير ذو طابقين وثلاجة قد تم لصق صور خليعة على بابها. ذهبنا وقعدنا على الكراسي، وأما الغرفة الأخرى فيخرج منها أصوات القهقهة.

مضى حوالي ربع ساعة لم ننبس ببنت شفة، إلا أن أبي كان يتثاءب كثيرًا إذ لم ينم خلال اليومين الماضيين من شدة الحمى التي تعرّض لها.

لم نكن نعرف إلى أين نسير؟، وكيف نسير؟، ومع من نسير؟ كما لم يكن قد خطر ببالنا أن تواجهنا كل هذه الصعاب من قبل.

أطللت برأسي من النافذة الصغيرة فلم أر أية تربة على الأرض فخريف إيطاليا كان ما زال يحتفظ بقوته ليُبقي على الأرض خضراء.

سمعت صوتًا فالتفت إلى مصدره بهدوء فإذا أمي قد قامت بفتح الثلاجة دنوت منها، وناولت منها علبة وقربتها من أنفي فإذا برائحة الكحول تنبعث منها. ونظرت إلى الأسفل فناولت منه قنينتيْ مياه ورجعت إلى نافذة الغرفة. وما إن ارتشفت من القنينة رشفةً حتى أخذني العطاس، وأحسست بمرارة في فمي. التفتُّ إلى أبواي؛ فأبي كان قد أغمض عينيه، وأما أمي فكانت تحدق النظر في أرضية الغرفة. مسحت شفتَيّ بطرف معطفي البني، ونظرت إلى مكان المسح فإذا به قد تلطخ بالدم، أمضينا النهار كله في الغرفة. وعند حلول المساء حضر إلينا شخصان أحدهما كان ذا شعر أحمر طويل، وأما الآخر فلم يكن عليه شعر سوى شعر الحاجبين وأفهمونا بأن علينا أن نسير وراءهم مشيًا بالأقدام مسافة طويلة.

كنا نشق طريقنا وسط غابة كثيفة، ومع ذلك كان يمكن رؤية الضوء الصادر من السيارات من خلال الأشجار؛ حيث مشينا طويلًا بجانب الشارع ثم غيّرنا المسير وصعدنا الجبل فبدت لنا أنوار السيارات كنجوم صغيرة تتلألأ وسط السماء.

فجأة بدأ هطول المطر فقام المرشدان بسحب سحاب معطفيهما المانع لتسرب المياه وأما أنا فقد بدأت المياه تتسرب من ردائي وتبلل شعر رأسي ووجهي وأكتافي وبدأت أقلق على الدولار الذي قمت بخياطتها في فانيلتي الداخلية.

ازداد هطول المطر، وبدأت المياه تنهمر عليّ بغزارة واختلط معه أصوات الرعد، سرنا إلى الأمام ساعة أو نصف ساعة. وبعدها صرنا نسمع مع أصوات قطرات المطر خريرَ الماء الجاري، وما إن تجاوزنا الأشجار الضخمة حتى شاهدنا في الأسفل نهرًا جارفًا، وكان يمكن رؤية الزبد الأبيض المتطاير من الأمواج وسط الظلام الهالك.

أخرج مرشدنا ذو الشعر الكثيف مصباحًا يدويًا من حقيبة ظهره، وكان ذا إضاءة قوية بحيث يمكن رؤية العشب الأخضر على الصخور العالية. ومع انقضاء جزء كبير من الليل لم يتوقف المطر نظرت إلى والدي فقد كانت عيونه مغمضة وهو جالس.

شممت رائحة الكحول، التفتُّ إلى مصدر الرائحة فرأيت أن المرشد حليق الرأس قد رفع زجاجة الخمر إلى فيه، وأما صاحب الشعر الكثيف فقد كان يحدق بعينيه في أمي.

اقتربت من والدي. كان المرشدان يتناوبان على تناول الخمر من الزجاجة، وكانا يضحكان ويتحدثان، ولم أكن أفهم حديثهما لكن إحساسي كان يقول بأن حديثهما يدور حول أمي.

فالتفت إلى أمي فقد كانت تضع رأسها على ركبتيها، وقد التصق شعرها الأجعد على صدرها الأبيض فقمت أنا كذلك بوضع رأسي على كتف والدي. وبعد مدة سمعت صوتًا فانتبهت فإذا أمي تقوم بفتح الحقيبة ثم أخرجت منها محارم ورقية. وأحدق المرشدان عينيهما فيها ثم ضحكا بصوت عال لكني لم أعبأ بهما، وخرجت برفقة أمي إلى الفناء.

كان لون السماء رماديًّا، وكانت الرياح تحرك السحاب معها، ولم أرَ في حياتي قمرًا بهذا الصفاء وهذا البياض. تقدمنا إلى الأمام فاهتزت شجرة صغيرة فارتعشت من الخوف فإذا بأرنب يقفز من تحت قدمينا.

دخلت أمي وسط الفسائل الكثيفة وأنا بدوري قعدت فوق صخرة، وكنت أسمع خرير الماء مخلوطًا مع عواء الذئاب. وفجأة اقترب مني ظل إنسان فانتفض قلبي ووقف المرشد ذو الشعر الكثيف أمامي ومد يده إليّ فحاولت دفعه عني بعيدًا إلا أنه هجم عليّ وتمكن من احتضاني بقوة واضعًا فمه على خدي، وانبعثت منه رائحة الكحول لم أعد قادرة على التنفس، وشددت الرجل من شعره لكنه لم يتركني؛ فصرخت بأعلى صوتي، وسعلت بشدة فسالت شرارة الدم من فمي. تراجع الرجل بسرعة للخلف ومسح عنقه بيده ثم حك أصابعه فرأى الدم وقال مشمئزًّا:

ـ ايخ.

ثم نظر إلي، وأنا مستمرة في السعال وفمي مليئة بالدم. تراجع الرجل للخلف خطوتين، فصرخت يا أبتاه!

جرى الرجل. وبدأ الصراخ، واهتزت أوراق الشجر، وخرجت أمي من وسط الفسائل ثم جرت، ومد الرجل حليق الشعر يده فمسكها من شعرها التفتُّ إليها فلم أجدها لكن صراخها كان آتيًا من ناحية النهر.

ركضت نحوها وبعد أن تجاوزت الأشجار الكثيفة رأيت أبي، وهو يلكم حليق الشعر ثم أسرع ورفع صخرة كبيرة من الأرض وما إن همَّ برميها على الرجل حتى أغمضت عيني وشعرت بتساقط قطرات ساخنة على يدي ووجهي ولمّا فتحت عيناي رأيت الدم ورأس الرجل قد تقطع إلى أشلاء صغيرة.

وبحثت عن أمي فرأيتها واقفة على حافة النهر، وتنظر إلى الماء بينما تهزّ الرياح شعرها الأسود وملابسها البيضاء يمينًا ويسارًا.

ربتَتْ على كتف والدي فنظر إليها فصرخ عليها: لا.

وأسرع إليها فلم يتمكن من الإمساك بها سوى قطعة صغيرة من قميصها الأبيض. وبدأنا نجري مع النهر إلا أن أمي كانت قد اختفت وسط زبد الماء الأبيض وتلاطم الأمواج التي كانت تُصدر صوتًا مهيبًا عند ارتطامها بالصخور.

وأجهشت مريم بالبكاء والسعال فلم تكن قادرة على مواصلة الحديث واستمرت على ذلك الحال ثم سمعت شهقة وساد الهدوء المكان للحظات. وبعده بدأت أسمع الشهيق مخلوطًا بأصوات نسائية ووقع الحذاء على الرخام وشوشرة أصوات نسائية ورجالية مع صوت جرّ السرير.

وفي صباح اليوم التالي بعثت رسالة إلكترونية إلى لوسي واستعلمت منها عن صحة مريم، وجاءني الجواب في الواحدة ظهرًا:

ـ عذرًا، فإن مريم قد توفيت الأسبوع الماضي.

قمت من مكاني وبدأت بالتجول حائرًا في مكتبي لا أدري ماذا أفعل فسألني زميلي بحيرة:

ـ أرى الدمع في عينيك!

درت بوجهي عنه ولم أجبه، ونزلت إلى فناء الفيللا. كانت الشمس ساطعة، ومع ذلك كان الجليد لا يزال معلقًا على الميزاب. رجعت إلى القسم، وبعثت إلى لوسي رقم هاتفي والتمست منها الاتصال بي.

ومع مرور أربع وعشرين ساعة لم أتلق أية مكالمة منها. قمت بإضافة جملة أخرى في الرسالة الثانية: كلميني من أجل مريم.

فأرسلت لي رسالة طويلة بالبريد الإلكتروني فقمت بطباعتها. وفي المساء جلست بجانب المدفأة وكان مما كتبت:

اعذرني؛ فقد رأيت كتابة المعلومات أفضل من الاتصال فقد أخبرتني مريم أن هناك شخصًا يكتب قصة حياتها. بقيت مريم يومين في حالة غيبوبة وأفاقت من غيبوبتها لمرة واحدة. ولمدة دقيقة واحدة فقط، كان يصعب عليّ فهمها. ومع ذلك فقد أفهمتني أن أقوم بإرسال حديثها المسجل إليك عبر البريد؛ فقد أحضرت الشرطة مريم إلى هنا قبل حوالي

أربعين أو خمسين يومًا. وبعد إجراء الفحوصات اللازمة تبين أنها تعاني من سرطان الرئة، وكان عليها أن تمضي بقية حياتها في المستشفى.

كانت مريم فتاة هادئة لم تكن تتحدث كثيرًا، وكانت كثيرة البكاء مع نفسها. أجبرتها على التحدث عن حياتها.

قالت لي يومًا: عمتي لوسي كم يومًا بقي من حياتي؟

سكت ولم أرد عليها.

فقالت:

ـ ألا يوجد شيء يقصّر بعضًا من هذه الأيام المتبقية؟

وفي الصباح لاحظت أن لونها قد تغير إلى الأحسن، ولم تكن ترغب بالموت كرغبتها فيه. بالأمس سألتها عن السبب فقربتني من جهاز الكمبيوتر، وفتحت صفحتها في الفيسبوك، وأشارت إلى صورة شاب ذي عيون كبيرة وجميلة وقالت:

ـ كتبت في خانة البحث اسم وحيد فطلعت لي صور عديدة فتعرفت على صورة من أحبه بسهولة.

ثم ضحكت فجأة وقالت:

ـ انظري إليه ماذا فعل بنفسه فقد حلق لحيته وشاربه.

ثم نهضت واحتضنتني بقوة ووضعت ذقنها على كتفي وأجهشت بالبكاء.

ـ يا عمتي لوسي لا أريد أن أموت.

وعندما مررت عليها في الصباح التالي رأيتها تبكي من جديد وعرفت من شكلها أن الوقت غير مناسب للحديث معها. وبعد الظهر رأيتها في فناء المستشفى، وكانت تجلس على الكرسي الإسمنتي. ذهبت إليها ووضعت يدي على كتفها فالتفتت إليّ فلاحظت أن عينيها قد احمرت من كثرة البكاء.

جلست بجانبها دون أن أحاول التحدث إليها أو تتحدث إلي، وكانت تنظر إلى الأسفل، وتقوم بتجميع أوراق الشجر بواسطة فردة حذائها الأيمن.

قلت لها بهدوء:

– الهواء بارد، ألا ترغبين في العودة إلى الغرفة؟

لم تجبني وظلت تنظر إلى الأرض وفجأة أجهشت بالبكاء فاحتضنتها وبعد صمت طويل قالت:

ـ اتصلت على وحيد، وكان صوت الضحك آتيًا من الطرف الآخر من الخط، سألته عن السبب فأخبرني أن خطيبته قد رمته بكرة الثلج.

لم تطلب مريم بطاقة شحن الرصيد لهاتفها مرة أخرى، وقالت بأن وحيد اتصل عليها عدة مرات وأرسل لها عدة رسائل عبر البريد الإلكتروني؛ لكنها لا ترغب في الرد عليها.

وفي الليلة التالية وأثناء مناوبتي سمعت مريم تترنم بشيء لم أكن أفهم ما تقول لكن فهمت من نبرة صوتها أنها تردد أغنية كان الحزن ظاهرًا فيها فتحت باب غرفتها فرأيتها تجلس على سريرها، وقد احمرت غطاء السرير بالدم. اقتربت منها بسرعة فرأيت صدرها ونحرها قد امتلأت دمًا.

التفتت إلي وقالت بهدوء:

ـ لقد رأيت وحيد مسرورًا، وهذه كانت أمنيتي الوحيدة، وليست لدي أمنية أخرى.

وبعدها لم تدخل مريم صفحة موقع الفيسبوك أبدًا، وكانت تتذرع بأنها مضيعة للوقت وكانت حريصة على الاطلاع على المواقع الأفغانية.

قالت لي يومًا:

ـ عمتي لوسي لقد أتعبتك كثيرًا وأرجو منك تلبية طلب أخير! فأنا أحتفظ بخريطة أفغانستان، وصورة وحيد تحت وسادتي وأرجو منك وضعها معي في التابوت. وهنا انتهت رسالة لوسي.

وفي الصباح أرسلت لها البريد الإلكتروني وطلبت منها إرسال صورة مريم وأجابتني في نفس اليوم قائلة:

ـ مريم كانت تثق فيك إلا أنها لم تكن تريد طباعة صورتها على غلاف الكتاب.

وطمأنتها في رسالة أخرى بعدم نشر صورتها فقامت بإرسال صورتها فلما نظرت إليه تذكرت حديث مريم عندما قالت لي:

ـ لا، لست قبيحة إلى هذا الحد، فأنا ذات فم صغير، وعيون كبيرة، وشعرٍ كثيف أجعد يتلوّى فيه المشط ولون بشرتي يميل إلى الاسمرار بعضاً الشيء.

كانت قد صدقت في وصفها لنفسها، ونسيت أن تذكر بأن عينيها مملوءتان بالدمع.

النهاية

١٢/ ١١/ ٢٠١٤م

الساعة ١٢:٣٩ م